السيد جعفر مرتضى العاملي

الأمانة الإلهية

لمن ولمــاذا ؟

تفسير آخر آيتين من سورة الأحزاب

المركز الإسلامي للدراسات

الأمانة الإلهية ..

لمن.. ولماذا؟!

الأمانة الإلهية
لمن.. ولماذا؟!

جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين..

وبعد.. فهناك آيتان في آخر سورة الأحزاب تحدثتا عن عرض الأمانة على السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا..

وإمعان النظر في هاتين الآيتين يضع الباحث أمام أسئلة عديدة، يحتاج إلى معرفة أجوبتها، ليتضح له المقصود منها.

وحيث إن الآية الثانية منهما قد فرضت على كل إنسان أن يحسم أمره بالنسبة لمصيره.. فإما إلى عذاب مقيم، أو إلى خلود في جنات النعيم..

وحيث إن الأسئلة التي أثارتها الآيتان الشريفتان تكمن أجوبتها في حنايا نفس هاتين الآيتين.. فقد دعاني شعور التطفل، والتشبّه بالباحثين والعارفين، إلى بذل المحاولة للحصول على أجوبة هذه الأسئلة، واستخراجها من مكامنها.

وقد قدّمت ثمار محاولتي هذه، في جلسة مع بعض الإخوة تعقد كل ليلة أربعاء، أتحدث لهم فيها في أمور تفسيرية أو عقائدية، أو تاريخية أو غيرها.

ولا أدَّعي أنني كنت من فرسان هذا الميدان، ولكنني أرجو أن يكون قد حالفني بعض التوفيق في كثير مما قلته ببركة القرآن الكريم، والنبي العظيم، وأهل بيته الطاهرين.

وقد استخرجت تلك الثمار من آلات التسجيل، وجددت النظر فيها، وها أنا أقدمها للقراء الأعزاء لعلهم يجدون فيها ما يجدي، والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

2 تموز 2018 م. ش

17 شوال 1439 هـ. ق

لبنان ـ جبل عامل ـ عيثا الجبل (عيثا الزط سابقاً) ـ قضاء بنت جبيل.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي.

قال تعالى في آخر سورة الأحزاب:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ❋

لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1].

---

(1) الآيتان 72 و 73 من سورة الأحزاب.

توطئة وتمهيد

مفاتيح نحتاجها..

بداية:

إن تفسير الآيات القرآنية، ليس بالأمر السهل والميسور، بل هو يحتاج إلى دلالات وإرشادات النبي وأهل بيته «صوات الله وسلامه عليهم أجمعين» بالدرجة الأولى..

ثم إلى التأكّد من دلالات الألفاظ التي حملت لنا تلك المعاني الكبيرة، التي هي خلاصة الخطة الإلهية لإعمار الكون، وإيصاله إلى كماله.. بالهداية والرعاية الربانية، من موقع الحكمة والتدبير، والرحمة، والتي تؤهل هذا الإنسان، ليعيش هذه الحياة ـ من خلال عمله في الدنيا ـ على حقيقتها في الآخرة.

قال تبارك وتعالى: ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[2].

وبعدما تقدم نقول:

إنه لا بد أولاً من تحديد دلالات ألفاظ الآيات.. بمختلف: حالاتها، وإيحاءاتها، وإشاراتها، وأنواعها.. من حقيقة ومجاز، وغير ذلك.. ومن التفاوت

---

(1) الآية 64 من سورة العنكبوت.

(2) الآية 22 من سورة ق.

بين تراكيب الجُمَل، ومن الصيغ التي يتم اختيارها على ما عداها، وكذلك لا بد من ملاحظة ما ضمَّ إليها، وقرن بها، مما أتاح الإستشراف لمجالات أخرى، كما أن تحديد أسباب اختيار لفظ بعينه دون سواه، واختيار صيغة دون أخرى، أو طريقة تركيبية دون ما عداها.. إن ذلك كله لا بد من الإحاطة به، ليمكن جعله منطلقاً لانتزاع التصور الشمولي العام، الصالح للاعتماد.

وقد يجد المهتم بالنواحي التفسيرية بعضاً من ذلك فيما كتبناه حول الآيتين هنا، وسائر ما كتبناه، فيما يرتبط بموضوع التفسير بصورة عامة.

لا يمسه إلا المطهرون:

إنما أذكر هذه الأسئلة اليسيرة للتدليل على عظمة القرآن، وأنه يحتوي على ما لا يخطر على قلب بشر من لطائف الإشارات، ودقائق المعاني، وهي من دلائل إعجازه، وأننا لا نعلم من حقائقه ودقائقه، وألطافه إلا اليسير.. الأمر الذي يؤكد الحاجة إلى من يبيِّنه، ويفسِّره، وهم النبي والأئمة الطاهرون «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

ولا بد من الإشارة إلى أنه سيأتي في ثنايا البحث أسئلة أخرى، يمكن إضافتها لما ذكرناه هنا لمن أحب ذلك..

أسئلة ترسم المسار:

1 ـ لماذا قال تعالى: ﴿**إِنَّا**﴾؟! ألم يمكن الاستغناء عنها، فيقول مثلاً: وعرضنا الأمانة الخ..؟!

2 ـ لماذا قال: ﴿**عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ**﴾، ولم يقل: حمَّلناها للسماء والأرض والجبال؟!

3 ـ الأمانة شيء يودعه صاحبه عند جهة، أو شخص ليرده إليه في الوقت أو الموقع المناسب.. وإذا كان الله تعالى هو الذي عرض الأمانة، فذلك يعني:

أنها ترتبط به، وأنها تعود إليه، وأنه هو المتابع لها، والمطالب بها..

4 ـ هل الألف واللام في كلمة «الْأَمَانَةَ» عهدية؟! وهل هو عهد ذكري، أو خارجي، أو ذهني؟!

5 ـ لم يذكر شيئاً عن حقيقة وطبيعة الأمانة المعروضة على السماوات والأرض والجبال؟!

6 ـ لماذا عرضها على السماوات، ولم يتحدث عن عرضها على الإنسان مثلاً، أو الجن، أو الملائكة، أو غير ذلك من المخلوقات العاقلة التي نعرفها؟!

7 ـ لِمَ عرض الأمانة على السماوات أولاً، ولم يعكس الأمر، فيبدأ بعرضها على الأرض أولاً، أو الجبال مثلاً؟! فما الذي رجَّح العرض على السماوات، التي تتشارك في عدم امتلاكها للتفكير والعقل، بحسب ما نعرفه عنها؟!

8 ـ هل عطف الجبال على الأرض عطف مغاير، أو عطف خاص على عام؟! وهل تختلف الأرض عن الجبال، أو أن هذه من تلك؟!

9 ـ كيف تأبى هذه المخلوقات ما عرضه الله تعالى عليها، مع أنه يفترض فيها أن تكون مستسلمة وطائعة، وخاضعة؟!

10 ـ لماذا قال: ﴿**فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا**﴾، ولم يقل: أبين حملها؟!

11 ـ هل قوله: ﴿**وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**﴾ يختلف عن الإباء، باعتبار أن الإشفاق هو سبب الإباء، فإنه هو المحاذرة. أي أنه لا يفعل ذلك خوفاً من عواقبه، أو من عدم قدرته على الوفاء بما طلب منه فيه؟!

12 ـ لماذا قال: ﴿**وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**﴾، فعداها بكلمة «من» إلى نفس الأمانة،

ولم يقل: أشفقن من حملها مثلاً؟!

وهل الإشفاق من نفس الأمانة: بأن يكون فيها ما يخيفهم، ويشكل خطراً عليهم، أو أشفقوا من تقصيرهم أو قصورهم؟!

13 ـ قال في أول الآية: ﴿**عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ**﴾ ـ ثم قال بعد ذلك: ﴿**وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾. مع أن مقابل العرض هو قبول العرض أو رفضه، وقد ذكر أن السماوات والأرض والجبال أبين ما عرضه عليهن.

ولكن ما دخل الإنسان في هذا الأمر، فلماذا بادر إلى حملها، وهي لم تعرض عليه؟! أو هل عرضت عليه ولم يذكر الله لنا ذلك؟! ولماذا لم يذكره؟!

14 ـ من هو الإنسان؟! هل يشمل الأنبياء، والمرسلين، والأئمة الطاهرين؟!

15 ـ إذا شمل هؤلاء، فهل يصح وصفهم بالظلم والجهل، فضلاً عن وصفهم بصيغة المبالغة، وهي الظلوم والجهول؟!

16 ـ لماذا قال: ﴿**ظَلُومًا جَهُولًا**﴾، ولم يقل: ظالماً جاهلاً؟!

17 ـ لماذا اختار خصوص هاتين الصفتين، ولم يزد عليهما صفة الغرور أو الاستكبار مثلاً، أو القوة، أو الضعف؟!

18 ـ ثم قال: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ**﴾، هل يعقل أن يعرض الله الأمانة على السماوات والأرض والجبال، بهدف تعذيب جماعات من البشر، ومثوبة جماعة آخرين؟!

وما شأن العرض على تلك المخلوقات وتعذيب مخلوق آخر، أو مثوبته؟! وكيف يمكن عدّ هذا من العدل، ولاسيما من الله تبارك وتعالى؟!

19 ـ هل اللام في قوله: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ**﴾ هي لام العاقبة كاللام

في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1]. فإن غايتهم من التقاطه لم يكن الحصول على الحزن والعداوة، بل كان هو الأُنس به، والفرح والسرور، وليكون لهم بمثابة الولد العزيز والكريم.

وإنما الذي حصل: هو أن عاقبة التقاطهم، هي أن يكونوا قد ربَّوا ونشَّأوا من هو عدو لهم في عقائدهم، وسلوكهم، وأخلاقهم، وانحرافاتهم، فأوجب ذلك حزنهم.. فعاقبة التقاط موسى «عليه السلام» كانت مخالفة لما قصده الذين التقطوه من التقاطه.. فالإنسان هو الذي جنى على نفسه فوقع في المحذور، والعذاب.

ويمكن أن تكون اللام في قوله تعالى هنا: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ﴾ هي لام الغاية، فإن الله تعالى إنما فعل ذلك لتتحقق نفس هذه النتيجة، ولا يصح القول: بأن ما قصده الله لم يقع، وما وقع لم يقصده تبارك وتعالى، لأن سبب العذاب والثواب: هو أعمال الناس التي تخضع لاختياراتهم؟!

20 ـ لماذا بدأ بالحديث عن المنافقين، وعذابهم، ولم يبدأ بالمشركين، مع العلم: أن ﴿اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2]. كما أن الشرك ظلم عظيم؟!

21 ـ لماذا أضاف لفظ الجلالة، فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ﴾ مع أنه كان يمكن أن يقول: «لنعذب المنافقين»، وبصيغة المتكلم من موقع العزة

---

(1) الآية 8 من سورة القصص.

(2) الآية 48 من سورة النساء.

والعظمة، وصيغة الجمع قد تكون مناسبة هنا. فلماذا عدل عن الحاضر إلى الغائب، فقال: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ**﴾؟!

22 ـ لماذا صرَّح هنا بالجنسين «الذكر والأنثى»، مع أنه في أكثر آيات القرآن يستخدم صيغة الذكر فقط؟!

23 ـ لماذا تحدَّث عن المشركين والمنافقين، ولم يذكر الكافرين ـ كأهل الكتاب مثلاً ـ كما فعل في سورة البينة، حيث قال: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾[1]. فلم يذكر المنافقين؟!

24 ـ كان يمكن أن يقول: ويتوب على المؤمنين، فلماذا صرَّح مرة أخرى بلفظ الجلالة؟! ثم صرَّح بلفظ الجلالة مرة ثالثة في قوله: ﴿**وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾.

25 ـ ولماذا جاء بكلمة كان في قوله: ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾. وجاء بكلمة كان في قوله: ﴿**وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾؟!

26 ـ لماذا اختار صفتي الغفور الرحيم، ولم يذكر غيرهما، كالعليم الحكيم، أو القوي العزيز مثلاً؟!

27 ـ لماذا قدَّم الغفور على الرحيم؟!

وسيأتي المزيد من الأسئلة وأجوبتها في ثنايا هذا البحث..

---

(1) الآية 1 من سورة البيِّنة.

الأسئلة المذكورة ليست مؤاخذات:

1 ـ إن هذه الأسئلة وسواها مما قد يأتي التعرض له لم نوردها على سبيل المؤاخذة ـ والعياذ بالله ـ وتسجيل الإشكال، بل نوردها لأن الأجوبة عليها تكشف لنا جوانب مما أرادت الآية المباركة الإشارة إليها، وفق ما تقرر من أن القرآن ليس مجرد كتاب قانوني، أو تشريعي، يبيِّن أحكام العبادات، والمعاملات، والسياسات، كما أنه ليس مجرد مقرر لأمور اعتقادية، أو ناقل لتاريخ الأمم والجماعات. بل هو رسالة الله تعالى لخلقه، الذين يريد لهم أن يعمروا الأرض، وينفتحوا على كل ما في هذا الكون من حقائق، وينسجموا ويتفاعلوا معه، ويوظفوه في نيل الغايات التي رسمها الله تعالى، في مسيرة الكون كله نحو كماله، وإيصاله إلى ذلك الكمال، من خلال العلم والمعرفة، والطاعة والخضوع، والانقياد للإرادة الإلهية على كل صعيد، وفي كل مجال.

يريد أن تصبح المعجزات، وخوارق العادات طريقة حياة، ووسائل عادية يمارسها الإنسان المؤمن كلما أحب، فيصبح طي الأرض، والطيران في الهواء، والجلوس في تنور النار بأمر الإمام، وكما فعل إبراهيم الخليل «عليه السلام»، وكشف الغيوب، ومعرفة أسرار الكون والحياة جزءاً من حياة الإنسان المؤمن، وحالة من حالاته..

فلا غرابة في إطاعة الشجر، وتسبيح الحصى في يده، كما لا غرابة إذا عرج به إلى السماء، وأبرأ الأكمه و الأبرص، وأحيا الموتى..

لكن كل ذلك بشرط أن يحصل على كمالاته وتربية نفسه، وصناعتها وفق ما يريده الله تبارك وتعالى.. كما قال عز وجل لموسى «عليه السلام»:

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(1)، وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(2). أي ليس فيه أيّة شائبة، فهو خالص لله تبارك وتعالى.

فظهر: أن هذه الأسئلة التي ذكرنا بعضها، وربما سيأتي بعض آخر إنما هي وسائل كشف للحقائق والدقائق الكامنة في الآيات المباركة.

2 ـ على أننا مهما جهدنا في البحث عن دقائق وحقائق القرآن.. فإننا نعلم: أننا حين يكون مسارنا العام صحيحاً ومقبولاً، فلا شيء يضمن لنا عدم خلو الفكر من شوائب القصور، أو التقصير في أفهامنا لها، أو عدم التنبه لعلاقتها بسواها، أو غير ذلك.

وهذا يحتّم الرجوع إلى الرسل، وأمنائهم، وهم الأئمة الهداة، المعصومون، الذين تلقّوا علومهم من الأنبياء، أو من مصادر ووسائل أخرى، أُذِن لهم بالاستفادة منها..

3 ـ مع العلم: بأن أيّة حقيقة يريد الله تعالى أن يتحف بها مخلوقاته بعد ذلك، فإنما تنزل على رسول الله «صلى الله عليه وآله» أولاً، ثم على علي أمير المؤمنين «عليه السلام»، ثم الحسن، ثم الحسين، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى الإمام المعني بهذه الحقيقة.

وهذا هو ما يفرضه لهم «صلوات الله وسلامه عليهم» مقام الشاهدية على الخلق.

---

(1) الآية 39 من سورة طه.

(2) الآية 41 من سورة طه.

الفصل الأول

عرض الأمانة..

كلمة «إِنَّا» لماذا؟!:

1 ـ وقد بدأ سبحانه كلامه بالآية بكلمة: ﴿إِنَّا﴾، وقد كان يمكن أن يقول: لقد عرضنا الأمانة على السماوات الخ.. ولاسيما مع ضمير المتكلمين في قوله: ﴿**عَرَضْنَا**﴾، وهو كلمة ﴿**نَا**﴾، فلماذا كان ذلك؟!

ونجيب:

بأن كلمة «إِنَّا» مؤلفة من كلمتين:

أولاهما: كلمة «إنَّ»، وهي حرف تأكيد، وهي «إن» الثقيلة.

الثانية: ضمير المتكلم، ومعه غيره.

وإنَّ الثقيلة كأنها بمثابة التأكيد مرتين.. فكأنه قال: لقد فعلنا هذا الأمر، بالتأكيد، بالتأكيد..

2 ـ وقد أدخل على كلمة «إن» ضمير جمع المتكلمين.. ولكن ليس المراد هنا: أن هناك جماعة اشتركوا بعرض الأمانة على السماوات، والأرض، والجبال، لا على سبيل التشارك في الشيء، ولا على سبيل انفراد كل فريق بما تكفل بإنجازه من المجموع.

بل من حيث إن الله تعالى يتكلم من موقع العزة والعظمة، والهيبة الإلهية،

والكرامة، والجلال.. ليدل بذلك على عظمة الأمانة، وخطورتها، وأهميتها، وقيمتها.

بل قد يقال: إن الله تبارك وتعالى قد لاحظ الوسائط التي سخّرها في عملية عرض الأمانة، لكي يبسِّط الأمور، وتصبح قابلة للإدراك، حتى للسماوات والأرض، والجبال، التي يفترض الناس: أنها لا تعرف شيئاً من الأسرار التي أودعها الله تعالى في هذا الوجود وما فيه.

فهو نظير قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾**، فقد بينت النصوص: أنه كان هناك تدرج في إنزال القرآن الكريم، ومراتب مرَّ بها، فقد كتب في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، ثم نزل إلى السماء الرابعة، ثم نزل بواسطة جبرئيل على قلب رسول الله «صلى الله عليه وآله».. ثم صار ينزل سورة سورة، وبعدها صار ينزل آية أو أكثر، حسب اقتضاء الحاجة..

وقد شيَّع بعض سوره، كسورة الأنعام حين نزولها، سبعون ألف ملك(1).

---

(1) راجع: الكافي ج2 ص622 وثواب الأعمال الصدوق ص105 وشرح أصول الكافي ج11 ص63 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج6 ص230 و (الإسلامية) ج4 ص873 والمصباح للكفعمي ص441 وبحار الأنوار ج89 ص274 و 275 ومستدرك سفينة البحار ج8 ص471 والتفسير الأصفى ج1 ص357 وتفسير العياشي ج1 ص354 و 383 وتفسير مجمع البيان للطبرسي ج4 ص6 و 306 ونور الثقلين (تفسير) ج1 ص696 و 778 وج3 ص241 والتفسير الصافي ج2 ص178 وجامع أحاديث الشيعة ج15 ص94 والبرهان للزركشي ج1 ص199 والسيرة

بل كان يأتي مع جبرئيل أيضاً قبيل من الملائكة، ليؤدي بعض ما جاء به إلى النبي «صلى الله عليه وآله»[1]. إذ هناك فرق كبير بين أن ينزل جبرئيل على النبي «صلى الله عليه وآله» بالأمر بصورة مفاجئة، وبلا مقدمات، وبين أن يأتي بالأمر على حالة من الجلال والعظمة، إما إظهاراً لعظمة المرسِل ـ بكسر السين ـ وهيبته، وعزته، أو لأجل تكريم المرسَل إليه، حين يكون ثمة حاجة إلى هذا التكريم، أو لأجل إظهار عظمة المحمول نفسه، بسبب ما له من أثر على الحياة والإنسان، وغير ذلك.

عَرَضْنَا:

وفي قوله تعالى: ﴿عَرَضْنَا﴾، يأتي نفس الكلام فيما يرتبط بالإشارة إلى

الحلبية (ط دار المعرفة) ج1 ص419 والدر المنثور ج3 ص2 و3 و4 والتفسير الكبير للرازي ج12 ص141 والإتقان ج1 ص37 و (ط دار الفكر) ج1 ص111 عن ابن الضريس، وأبي عبيدة وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم، وأبي الشيخ، والبيهقي في شعب الإيمان، والسلفي في الطيوريات، والإسماعيلي في معجمه، والخطيب في تاريخه، وعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وغيرهم، عن ابن عباس، وابن مسعود، وأسماء بنت يزيد الأنصارية، وابن عمر، وأنس، وجابر، وعن الإمام علي «عليه السلام»، وعن أبي بن كعب، ومجاهد، ومحمد بن المكندر، وعطاء، وغيرهم.

(1) الصراط المستقيم ج2 ص144 وبحار الأنوار ج56 ص185 ومستدرك سفينة البحار ج3 ص269 وكمال الدين ص283 وكتاب الأربعين للماحوزي ص364 والعوالم ج17 ص14.

مقام العزة والجلال، والعظمة الإلهية، بضمير الجمع المتصل بـ «**عَرَضَ**»، وإن كان الذي اقتضى هذا الضمير هو البدء بضمير الجمع، وهو كلمة «إنّا»..

وهنا سؤال يقول:

إذا كانت «ال» في كلمة «الأمانة» عهدية، فمن أي نوع من أنواع العهد هي: العهد الذهني، أو الذكري، أو الخارجي، كما أنها إذا كانت للعهد فهي معروفة، ولها حضورها القوي في الذهن، فما الحاجة إلى عرضها؟!

وثمة سؤال يقول: لماذا تحدث عن العرض، ولم يفرض على المخلوقات التي عرضت عليها حملها، ويقول: حمَّلنا الأمانة للسماوات والأرض؟!

ونجيب على هذين السؤالين بما يلي:

أولاً: بالنسبة للسؤال الأول نقول:

ألف: إن العهد الذِكري غير موجود إذا لم يسبق للأمانة ذكر في الكلام، وليست للعهد الخارجي، كما أنها ليست الجنس ولا الحقيقة، بل هي للعهد الذهني، ولو من حيث اقتضاء الواقع الخارجي للأمانة لانتظام حركة الحياة بها.

ب: إن هذا العهد الذي أشارت إليه اللام، لا يعني الاستغناء عن عرضها على السماوات والأرض والجبال لأجل معرفة تفاصيلها ودقائقها، في مقام ترتيب الآثارعلى المعروض، لأن العهد قد يكون متعلقه العنوان العام والكبير، كما لو علم بأن الأمانة ترتبط ـ مثلاً ـ بقيادة مسيرة الكون والحياة.

وقد لا يكفي هذا المقدار من المعرفة، بل يحتاج إلى الدخول في التفاصيل وكشف الحجب حجاباً بعد حجاب إلى أن ينتهي إلى حد استشراف الأسرار،

ولو في مباديها الأولى.. ولكي تتضح الخيارات أمامه، لكي يوازن بينها في مقام عرض الأمانة عليه، مع وضوح ما يترتب على كل خيار من عواقب، فلا غوامض، ولا مبهمات، ولا حدسيات.

وبذلك يكون هو المسؤول عن تقصيره، فيعاقب، وعن قصوره، فيطالب، لأنه عرف كل شيء، وقارن، ووازن، واختار، وأقدم، فمنع من إيكال ما اختاره إلى تقصير أو قصور غيره.

ثانياً: بالنسبة للسؤال الثاني نقول:

إنه تعالى لم يحمِّل الأمانة للأرض والجبال ابتداء، ولو فعل ذلك لوجب عليها حملها، ولا خيار لها في ذلك.. وهذا خلاف المراد، لأنه تعالى عرض الأمانة عليها لتكون هي التي تختار حملها، أو عدمه، فإن اختارت حملها، فإنه يكون حملاً مستنداً إلى اختيار الحامل، فعليه أن يتحمل نتائج اختياره.

ولكنها أبت ذلك، ربما لإدراكها عدم قدرتها على الإتيان بها على وجهها الصحيح.

3 ـ ولكن الإنسان، بادر إلى حمل الأمانة شوقاً منه إلى السلطة، التي يتمكن بها من الاستئثار لنفسه بكل شيء.. وأن يمارس ما شاء من ظلم وقهر، وجبروت.. ويحصل بها على الأموال والنساء، وعلى الجاه، وعلى غير ذلك.. وهو الذي اتخذ هذا القرار، ولم يتثبت من مدى خطورته، ومن سلبيات فعله هذا.

وبذلك يكون قد ظلم نفسه، لأنه أقدم على أمر لا يطيقه، وله من الآثار

السلبية على سائر المخلوقات ما لا يعلمه إلا الله تعالى.. وكان جهولاً بجميع الحيثيات والدقائق والتفاصيل، التي يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار في أي خيار.

فالإنسان قد قصَّر عن أن يكون مثل السماوات، والأرض، والجبال، رغم ادِّعائه التميز والتفرد عنها بالعقل والتدبير، ففضح نفسه، وعرف كل المخلوقات: بأنه مغرق في الظلم الكثير، والجهل الغزير والخطير.. وإنما على نفسها جنت براقش.

4 ـ يلاحظ: أن الأمر لم يقتصر على مجرد إباء السماوات، والأرض، والجبال لحمل الأمانة، بل تعداه إلى تأثر المشاعر في هذه الموجودات، التي كشف الله سبحانه عن حالها، بقوله: ﴿**فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**﴾. فإن هذه الكلمات المباركة قد دلت:

أولاً: على أن الله سبحانه قد أعطى للسماوات والأرض والجبال درجة من الإدراك والتمييز، يجعلها قادرة على معرفة ما فيه صلاح لها، وتمييزه عن غيره، ومعرفة ما تقدر عليه، وما تعجز عنه، أو يوجب لها حرباً وخسراناً، أو تعباً، أو نصباً من غيره.

ثانياً: دلت على أن المشاعر والأحاسيس، والانفعالات الحميمة قد تحركت، ربما لأن الانكشاف الذي تحقق لها كان في غاية الدقة والوضوح في الدلالة على دقائق ما تؤول الأمور إليه، وترسو عليه الحال.

وظهر لها: أن الإقدام على اختيار أمر كهذا يمثل مجازفة غير محمودة، لأنها قد لا تنتهي إلى النجاح والفوز.. بل إلى الإضرار بكثير من مخلوقات الله لها،

والتعدي على ما لا يجوز التعدي عليه.

ولذا جاءت المشاعر لتعالج الأمر من باب الإشفاق، وهو الخوف، والوجل من الدخول في أمر قد ينشأ عنه تضييع ما لا يجوز تضييعه، وتحمل تبعات ذلك التضييع.

5 ـ وقد دلنا الحديث عن إشفاق السماوات والأرض والجبال: بأن لدى هذه المخلوقات مشاعر وانفعالات، كالإشفاق.. ولديها خشوع أيضاً، وغير ذلك.. وهذا من الأمور التي لا ينالها الإنسان بحواسه، ولا يعلم بها إلا بالدلالة الإلهية.

6 ـ ومن الواضح: أن هذا الأمر يمهد أيضاً لإدانة الإنسان، وتقبيح ما صدر منه من كثرة الظلم، وكثرة الجهل.. ما يدعو إلى مواجهة هذا التقريع الإلهي الشديد.. وستأتي ـ إن شاءالله ـ إشارات إلى إدانات أخرى، وقد نوفق إلى الكشف عن بعض لطائف الإشارات ودقائق العبارات.

الأمَانَةَ:

صرحت الآية: بأن الله تبارك وتعالى عرض الأمانة المعروفة والمعهودة على السماوات والأرض والجبال.

ولم تذكر الآية شيئاً صريحاً عن حقيقة وطبيعة الأمانة، ونوعها، وأي شيء من مواصفاتها.

والذي نعرفه، ويمكننا قوله: إن الأمانة هي ما يجب حفظه لصالح غيره، ثم أداؤه سالماً ـ كما كان ـ لنفس ذلك الغير.. سواء أكان ذلك الغير شخصاً،

أو جهة، أو غير ذلك.

وأي عدوان على الأمانة، أو تفريط فيها، أو تقصير في حفظها إنما يتحمل، من يؤتمن عليها مسؤولية ذلك في الدنيا وفي الآخرة.

2 ـ ولم تحدد لنا الآية صاحب الأمانة، هل هو الله سبحانه؟! أو الأنبياء والأئمة هم أمناؤه تبارك وتعالى؟!

ولكن الروايات قد ذكرت ذلك، فقد روى جابر الجعفي قال: قال أبو جعفر «عليه السلام»: مضى أبي علي بن الحسين «عليهما السلام» إلى مشهد أمير المؤمنين علي «صلوات الله عليه»، فوقف عليه ثم بكى وقال: «السلام عليك يا أمين الله في أرضه، وحجته على عباده»[1].

وروي: أن صاحب الأمانة هو رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأمناء الرسل هم الأئمة الطاهرون «عليهم السلام»، وألحق بهم على سبيل التنزيل، العلماء الأتقياء، حيث ورد في الحديث الشريف قوله «صلى الله عليه وآله»: «العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا»[2].

---

(1) مصباح المتهجد ص738 وهداية الأمة للحر العاملي ج5 ص454 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج14 ص395 و (الإسلامية) ج10 ص306 والمزار لابن المشهدي ص282 وفرحة الغري ص70 والمزار للشهيد الأول ص114 والمصباح للكفعمي ص480 وبحار الأنوار ج97 ص359 والبلد الأمين ص295.

(2) الكافي ج1 ص46 ودعائم الإسلام ج1 ص81 ومستدرك الوسائل ج13 ص124 وج17 ص312 والنوادر للراوندي ص156 وغوالي اللآلي ج4 ص77 ومنية

3 ـ وهذا يثير سؤالاً يقول: هل المقصود بالأمانة: أمانة إلهية هي الولاية والحاكمية التي يحملها الأئمة، بعد إعادتها إلى الله سبحانه، ليكون هو الحاكم الحقيقي في كل شيء؟! أو المقصود الأمانة الإلهية التي تؤدى إلى الأئمة في آخر الزمان؟!

وقد روي ما يدل على هذا المعنى عن الإمام الصادق «عليه السلام»، فقد روي عنه ما ملخصه:

أن الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، وجعل أعلاها وأشرفها أرواح النبي، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، والأئمة من بعدهم. فعرضها على السماوات والأرض والجبال، فغشيها نورهم، وبعد أن بيَّن الله مقاماتهم، وأنه تعالى خلق الجنة لهم ولمن تولاهم، والنار لمن خالفهم وعاداهم، وغير ذلك.. قال سبحانه وتعالى: فولايتهم أمانة عند خلقي، فأيّكم يحملها بأثقالها، ويدَّعيها لنفسه دون خيرتي؟!

فأبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وأشفقن من ادِّعاء منزلتها، وتمني محلها من عظمة ربها.

المريد ص138 و 164 والفصول المهمة للحر العاملي ج1 ص607 وبحار الأنوار ج2 ص36 و 110 وج72 ص380 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص98 وج8 ص284 وأعلام الدين ص90 والدرر النجفية للبحراني ج2 ص62. وراجع: الجامع الصغير ج2 ص232 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج10 ص183 وفيض القدير ج4 ص610 وكشف الخفاء ج2 ص87.

ثم ذكر «عليه السلام» ما جرى لآدم بعد إسكانه الجنة، وأنه «عليه السلام» هو وحواء قد رأيا منزلة النبي وفاطمة والأئمة الإثني عشر، فوجداها أشرف منازل الجنة، فسأل الله تعالى عن أصحاب هذه المنزلة، فذكر عز وجل لهما: أنها منزلة المعصومين الأربعة عشر، وبيَّن لهما طرفاً من مقاماتهم ومنزلتهم «عليهم السلام»، ثم حذّرهما من أن ينظرا إليهم بعين الحسد، ومن أن يتمنيا منزلتهم عنده، وأراهما منزلة من يفعل ذلك، من ظالميهم في النار.

ثم ذكر «عليه السلام» ما جرى لآدم وحواء.. فأهبطا من الجنة موكولين إلى أنفسهما في طلب المعاش.

ثم أرشدهما جبرئيل إلى التوسل بأسماء النبي وفاطمة والأئمة «عليهم السلام»، التي رأوها مكتوبة على ساق العرش، ليتوب الله تعالى عليهما، ففعلا ذلك، فتاب عليهما إنه هو التواب الرحيم.

قال «عليه السلام»: «فلم يزل أنبياء الله بعد ذلك يحفظون هذه الأمانة، ويخبرون بها أوصياءهم، والمخلصين من أممهم، فيأبون حملها، ويشفقون من ادّعائها».

وحملها الإنسان الذي قد عرف.. فأصل كل ظلم منه إلى يوم القيامة. وذلك قوله عز وجل: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾»[1].

---

(1) معاني الأخبار ص 108 ـ 110 والبرهان (تفسير) ج2 ص318 ـ 320 و (ط مؤسسة البعثة) ج1 ص183 ـ 185 وج4 ص499 ـ 500 ونور الثقلين

وهناك روايات عديدة صرحت:

بأن المراد بالولاية هو ولاية علي بن أبي طالب «عليه السلام»، وأن المراد بالإنسان: هو من ادَّعاها لنفسه بغير حق، فراجع[1].

الأنبياء: لم يحملوا الأمانة، بل حفظوها:

وقد تضمنت الرواية المتقدمة: أن الأنبياء والأوصياء، والمخلصين من أممهم حافظون للأمانة، وليسوا حَمَلَةً لها، ويوصي بعضهم بعضاً بحفظها لأهلها على ما هي عليه، إلى أن يبلغوها إلى حملتها الحقيقيين، وهم النبي وأهل بيته الطاهرون «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»، ليعيدوها صحيحة سليمة

(تفسير) ج4 ص310 ـ 312 وكنز الدقائق (تفسير) ج 10 ص 450 ـ 453 والمحتضر للحلي ص279 ـ 282 والجواهر السنية ص254 وبحار الأنوار ج11 ص172 ـ 174 وج26 ص320 ـ 323 والنور المبين للجزائري ص41 وغاية المرام ج4 ص187.

(1) معاني الأخبار ص110 وبصائر الدرجات ص87 و (ط الأعلمي) ص96 وتفسير القمي ج2 ص172 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص314 و (ط المكتبة الحيدرية) ج2 ص142 وعيون أخبار الرضا ج1 ص273 ـ 274 وبحار الأنوار ج23 ص279 وج31 ص587 وج57 ص280 وتأويل الآيات الظاهرة ج2 ص469 والبرهان (تفسير) ج6 ص318 ـ 322 و (ط مؤسسة البعثة) ج4 ص500 ـ 501 ونور الثقلين (تفسير) ج4 ص309 ـ 310 و 313 وكنز الدقائق (تفسير) ج10 ص450 و 455 وغاية المرام ج4 ص189 ومسند الإمام الرضا للعطاردي ج1 ص366.

إلى صاحبها.

ولا يدَّعون لأنفسهم فيها أي حق أو علاقة تخوِّلهم الاستفادة منها لهم، وتمنحهم سلطة، أو نفوذاً، أو أي نوع من أنواع التصرف..

إختصاص الأمانة بالمعصومين الأربعة عشر:

والسؤال هنا، هو عن سبب اختصاص محمد وأهل بيته، وبقية الأئمة الأثني عشر «عليهم السلام» بهذه الأمانة، ولم يكن لسائر الأنبياء والأوصياء، والمخلصين من أممهم نصيب منها سوى حفظها لأهلها..

ويجاب بما يلي:

1 ـ إن من المعلوم: أن قوام هذا الكون كله، بإنسه، وجنه، وملائكته، وسائر ما فيه من مخلوقات وغرائب، وعجائب قائم بمحمد وأهل بيته الطاهرين «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»، وتحت رعايتهم، حتى الملائكة يتعلمون منهم، ويتقربون بهم إلى الله، وتتمثل لهم مثلهم في السماوات.

ويكفي أن نشير إلى ما ذكرته هذه الآية، من عرض أمانتهم على السماوات والأرض والجبال، فلم يتجرأن على ادِّعاء القدرة على حملها. وقد صرحت الرواية بما جرى لآدم، وزوجه، مما له ارتباط بهم «صلوات الله عليهم»..

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾(1).. دلالة على أن النبي محمداً «صلى الله عليه وآله» كان

---

(1) الآية 41 من سورة النساء.

حاضراً وناظراً لأعمال أنبياء جميع الأمم، منذ آدم «عليه السلام»، وسوف يشهد عليهم بأعمالهم تلك.

وهذا يعطي: أن كل نبي، ورسول، سواء أكان من أولي العزم، أو من غيرهم معني بأمر محمد وأهل بيته المعصومين «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

وقد توسل بهم آدم، ونوح، وإبراهيم، ويونس، وسائر الأنبياء والرسل، في ساعات الشدة، فوجدوا منهم المعونة والرعاية..

وكانوا يرونهم مطيفين بالعرش، ويعرفون أسماءهم.

وهل يمكن ممن يراهم بهذا المقام، وهم أجساد نورية أن ينصرف عنهم ويقول: هذا لا يعنيني؟!

وهل يكون من يفعل هذا يستحق أن يكون نبياً؟!

وكيف يمكن أن تحلَّ بدونهم مشكلة آدم، وينجو نوح، وإبراهيم، ويونس وسواهم من الشدايد؟!

كما أنهم كانوا مطالبين بالإيمان بهم «عليهم السلام».. وبدونه، فإن أعمالهم لا تقبل، بل هم ميزان الأعمال لجميع العباد، من لدن آدم وإلى يوم القيامة، لأنهم جزء من هذا الدين، الذي حمله الأنبياء لأممهم.

2ـ التعبير بالأمانة يشير إلى أهميتها عند من جعلها أمانة، ويدل على أن صاحبها يريد لها أن تحفظ، وأن لا ينالها سوء، ويريد أن تعود إليه سالمة من أي نقص، أو حيف.

الفصل الثاني

أبين أن يحملنها..

عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال:

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ**﴾.

والسؤال هو: لماذا بدأ بالحديث عن العرض على هذه الثلاثة، ولم يبدأ بالحديث عن العرض على الإنسان.. فإنه هو الذي يدَّعي: أنه يملك القدرات، ويبتكر الوسائل، ويطورها ويسخِّرها في الوصول إلى ما يريد؟!

كما أنه حين تحدث عن الإنسان، لم يصرح بأنه عرض الأمانة عليه؟!

والجواب يكون فيما يلي:

إن هذه المخلوقات الثلاثة «السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ» عظيمة وكبيرة تبهر الإنسان، ويشعر بأهميتها البالغة، فإذا أبت حمل الأمانة، وأشفقت منها، فالحري بالإنسان أن يشفق منها ويأبى حملها.. فإن لم يفعل ذلك، فيكون قد ظهر ظلمه وجهله، ويكون هذا العرض والرفض من قبيل الدليل على المدَّعى، وسيأتي بعض ما يرتبط بذلك.

ويجاب عن السؤال عن سبب البدء بالعرض على السماوات، ولم يبدأ بالأرض والجبال.. وعن سؤال آخر حول سبب الاستفادة من صيغة الجمع

في كلمة «السَّمَاوَاتِ» ، حيث لم يقل: على السماء. ـ يجاب ـ بما يلي:

إنه ربما كان سبب البدء بها: أنها أشد الأشياء غموضاً، وإبهاماً بالنسبة للبشر. وهي الشاهد الخالد على عجز البشر عن كشف غوامضها، وإيضاح مبهماتها، وعن إمكانية تسلّطهم عليها، وتحكمهم بها..

بل هي مما يعجز البشر عن التكهن بما تنطوي عليه حناياها، بما يزيد على مشاهداته للنجوم، والشمس، والقمر. مع عجزه عن إدراك الكثير من مكنوناتها، وحالاتها، وأسرارها، وأطوارها.. فما في يد الإنسان هو مدى محدود جداً لا يكاد يغني ولا يسمن من جوع.

والأهم من ذلك: إدراك الإنسان عجزه عن اختراق هذا المجهول، ولو في حدود السماء الدنيا، فما بالك بالسماوات العلى، لاسيما إذا كانت السماء الدنيا في السماء الثانية كحلقة ملقاة في فلاة، والثانية في الثالثة كحلقة ملقاة في فلاة، وهكذا إلى السابعة[1]، فما بالك بما بعدها؟!

---

(1) راجع: بحار الأنوار ج25 ص385 عن المحتضر من نوادر الحكمة، ومستدرك سفينة البحار ج5 ص162.

وراجع: الحديث الذي يتكلم عن أن الكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة في المصادر التالية: بحار الأنوار ج57 ص5 و 17 وج74 ص71 و 73 عن الأمالي للطوسي، وج2 ص138 ومعاني الأخبار ص333 والخصال ج2 ص103 و 104 و (ط جماعة المدرسين) ص524 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص97 والتوحيد للصدوق ص276 و 277 ونور البراهين ج2 ص94 ـ 98 وتفسير العياشي

يضاف إلى ذلك: أن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ**﴾[2].

وهذا يعني: أن كل ما يصل نوره إلينا فهو في السماء الدنيا، وهي الأقرب إلينا.

وأما بقية السماوات، فلا نعلم إن كان يوجد فيها كواكب، أو أن فيها موجودات من أنواع أخرى!

ج1 ص137 ونور الثقلين (تفسير) ج1 ص257 وكنز الدقائق (تفسير) ج2 ص397 والبرهان (تفسير) ج1 ص521 وج5 ص639 وغوالي اللآلي ج1 ص91 وج4 ص100 والدرجات الرفيعة ص232 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج11 ص228 والدر المنثور ج1 ص328 وفتح القدير ج1 ص273 وتفسير الآلوسي ج3 ص10 وفتح الباري ج13 ص347 وكتاب العرش لابن أبي شيبة ص77 وتخريج الأحاديث والآثار ج2 ص389 وموارد الظمآن ج1 ص193 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج16 ص132 والفتح السماوي ج1 ص303 وزاد المسير ج1 ص265 والجامع لأحكام القرآن ج4 ص205 وتفسير القرآن العظيم ج1 ص317 و 600 وج2 ص517 ج3 ص263 وج4 ص411 وتاريخ مدينة دمشق ج23 ص274 و 277 والمنتظم لابن الجوزي ج1 ص189 والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث) ج1 ص15 ونهاية الأرب ج1 ص32.

(1) الآية 5 من سورة الملك.

(2) الآية 6 من سورة الصافات.

وهذا العجز أمام حقيقة السماوات، لا بد أن يعيد الإنسان إلى نفسه، وإلى حجمه الطبيعي، ويخرج من الخيال إلى الواقع، ولا يقيس حجم نفسه بحجم خياله..

ويعرِّفه: أن الأمر يحتاج إلى المزيد من التأمل والتدبر، وأنه لم يأت عبثاً، ولا على سبيل الصدفة.. بل هناك مدبِّر حكيم، وقادر عليم.

فكلمة «سماوات» هي التي تعيد الإنسان إلى حجمه الطبيعي، ليتوازن أمام الواقع، ويتعامل معه، لا مع الأوهام والتخيلات، والافتراضات التي لا تملك دليلاً، ولا شاهداً.

وَالأَرْضِ:

ثم ثنَّى سبحانه بالأرض، ليكون قد بدأ بالغائب المطلق، الذي ليس في يد الإنسان حيلة لكشف مبهماته، وإيضاح غوامضه، وهي السماوات مع ما لها من جوانب العظمة، وميزات فريدة، وثنى بالحاضر لدى الإنسان بأشد حالات الحضور، ومختلف مراتبه، وله أيضاً جوانب فريدة من العظمة.

ومع أن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً للإنسان، وهو يتبوأ منها حيث يشاء.

ويرى: أن هذه الأرض هي التي تصنع له كل شيء، حتى ما كان متضاداً ومختلفاً، كالطعوم، والألوان، والروائح، والمعادن.. وأنواع الحبوب والثمار، والعناصر، فضلاً عن الأشجار والنبات والأزهار، ومكونات الأجساد، للناس، والحيوان، والهوام، وكل شيء، بل كل ما يخترعه البشر ويصنعونه..

فما هذا التراب الذي يصنع كل هذه الأعاجيب التي لا يمكن إحصاؤها، أو استكناه أسرارها، ولا تفسير مسارها؟!

وَالْجِبَالِ:

1 ـ وللجبال عظمتها وهيبتها وهي موجودات ضخمة وهائلة. فيها أيضاً الكثير من الخفايا والأسرار، وقد جعلها الله أوتاد الأرض من أن تميد بأهلها.

2 ـ وإذا كان الإنسان يفتخر بنفسه، وبأن الله تعالى قد أعطاه عقلاً، واختياراً، وأمدَّه بقدرات، وطاقات، وإمكانات يمتاز بها عن غيره، فإن الله سبحانه قد قدَّم بهذا العرض للأمانة على السماوات والأرض والجبال دليلاً على أن هذا الإنسان الذي يدّعي أنه عاقل ومتميز بقدراته هو كثير الجهل، وكثير الظلم..

وأن ما يظن أنه جماد لا عقل ولا خيار، ولا اختيار، ولا قدرة له، إن هذا الجماد أرقى منه، وأعقل، وأحكم، وأعدل من ذلك الإنسان المدّعي والمستكبر.

هل الجبال غير الأرض؟!:

وبعد، فقد عطف الجبال على الأرض، فهل هو عطف مغاير، أو عطف خاص على عام؟!

ونجيب:

بأن هذا لا يغير شيئاً في المعنى المقصود، وهو إظهار عجز وجهل الإنسان، وظلمه، وغروره، وعدوانيته، وانقياده لأهوائه وشهواته، وسيبقى الإنسان

يكتشف المزيد من جهله بها، وعجزه عنها.

فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا:

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هذا الإباء يدل على أن هذه الموجودات تملك درجة من الدراية والعقل والإدراك، وأن للسماوات والأرض والجبال مشاعر وأحاسيس.. بل إن جميع المخلوقات تملك درجة من الإدراك تجعلها قادرة على التسبيح، وعلى الاستجابة والرفض، ولديها خشوع وخشية، وما إلى ذلك.

ويكفي أن نشير هنا إلى الآيات التالية:

قال تعالى: **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾**(1).

وقال عز وجل: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾**(2).

وقال تبارك وتعالى: **﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾**(3).

وقال سبحانه: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾**(4).

---

(1) الآية 21 من سورة الحشر.
(2) الآية 44 من سورة الإسراء.
(3) الآية 13 من سورة الرعد.
(4) الآية 18 من سورة الحج.

وقال عز وجل: ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ**﴾[1].

ولكن هذا الإنسان المغرور، والكثير الظلم، والكثير الجهل، الذي أظهرت الوقائع أن الجمادات أعدل وأحكم، وأعلم منه، وأكثر توازناً، وانصافاً منه.

إن هذا الإنسان وانسياقاً مع أهوائه، يبادر إلى التصرف في أمانة الله، ويدَّعي أنه أهل لأن يحملها، مع ملاحظة: أنه لا دليل على أنها عرضت عليه، ولو كانت قد عرضت عليه، فإنما عرض عليه حفظها لأهلها، ولم يعرض عليه التصرف بها، والتصدي لها.

لم يقل: فأبت:

وقد قال تبارك وتعالى: ﴿**فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا**﴾، ولم يقل: فلم يحملنها، أو فلم تحملها.

ولعل سبب ذلك يتضح مما يلي:

1 ـ أن سبب عدم الحمل، قد يكون هو التمرد والعصيان.. وقد يكون هو إدراك العجز وعدم الأهلية، أو القدرة على ذلك..

وعدم القدرة لا ينسجم مع الإباء الذي هو الامتناع.. فإن العاجز يقرّ بعجزه، ويتوقف، ولا يتمرد، ولا يستعلي، إلا على سبيل المكابرة، ولو كانت لديه القدرة على إنجاز المطالب، وكان ذلك طاعة، فلا شيء يوجب أن تمتنع السماوات والأرض والجبال عن طاعة الله؟!

---

(1) الآية 79 من سورة الأنبياء.

وهذا يعطي: أن إباء السماوات والأرض والجبال تكويني، سببه العجز، وليس المراد الإباء الإرادي المساوق للعصيان لأمر ملزم، كان يمكن أن يطاع أمر الله فيه.

وقد دلّت هذه الآية: على أن الموجودات، حتى السماء والأرض والجبال لديها درجة من الإدراك والشعور، ولها أيضاً درجة من الاختيار، وتستطيع أن تقبل وتستجيب، وأن تأبى وترد.

وإباؤها قد يكون إباءً اختيارياً، وقد يكون تكوينياً بمعنى: أن إدراكها لعجزها يدفعها إلى الكشف عنه بعدم مبادرتها لحمل الأمانة، كالذي يؤمر بحمل جبل من حديد، فإنه سوف يمتنع حتى عن محاولة حمله، لعلمه بنتيجة المحاولة سلفاً.

وقد ذكرت الآيات: أن الله تعالى جعل الجبال أوتاداً للأرض، فقال: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾(1).

وروي عن علي «عليه السلام» قوله: «ووتّد بالصخور ميدان أرضه»(2).

وقال سبحانه: ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**﴾(3).

وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**﴾(4).

---

(1) الآية 7 من سورة النبأ.

(2) بحار الأنوار ج4 ص249 و250 وج47 ص300.

(3) الآية 15 من سورة النحل، والآية 10 من سورة لقمان.

(4) الآية 31 من سورة الأنبياء.

هل هذا عطف مغاير؟!:

وبعدما تقدم نقول:

هل كون الجبال أوتاداً للأرض، يجعل عطفها عليها عطف مغاير، لأن الوتد للأرض ليس هو الأرض، أو أن كونه وتداً للأرض لا يقتضي مغايرته لها في الحقيقة، فإن أعضاء الإنسان التي يقوم بها البدن جزء من البدن، وليس لها حقيقة أخرى، فإذا عطفت عليه، فلا يكون من عطف المغاير والمباين، بل من قبيل عطف الجزء على الكل، ولكنه جزء مقوّم له.

غاية الأمر: أنه لا بد من وجود خصوصية عظيمة الخطر في الجبال اقتضت اعتبارها غيرها.. فعرض الأمانة عليها بالإستقلال، مع ملاحظة: أن هذه الخصوصية، إما مفقودة في الأرض، أو أنها ليس لها فيها ذلك الأثر الكبير والخطير.

الأَرْضِ وَالْجِبَالِ:

1 ـ رأينا: أنه تعالى عبر عن الأرض بصيغة اسمها المفرد، لا بصيغة الجمع، وأما الجبال، فقد ذكرها بصيغة الجمع، وهذا هو مقتضى وظيفة الجبال العملية في حفظ الأرض من المَيَدَان.. فجعلت أوتاداً مزروعة في المواضع التي تحتاج إلى ذلك.

ضرورة تسطيح الأرض:

2 ـ قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ**

كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

وفي دعـاء السمات، المروي عن أبي جعفر محمد بن عثمان بن سـعيد العمري: «وبالنظرة التي نظرت بها إلى الجبال فتشامخت، وإلى الأرضين فتسطحت»[2].

وهو يدل على أن الجبال غير الأرضين، فالأرض هي الأرض المستوية، والجبال هي ما علا وتشامخ.

كما أن الجبال أوتاد الأرض تمسكها، وتحفظها من أن تميد بأهلها.

وقد ذكر الإمام الصادق «عليه السلام» للمفضل: أن الجبال أيضاً تختزن المياه، وتحوّلها إلى ينابيع كثيرة، وأنهار غزيرة..

«وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل».

وفيها أيضاً معادن لضروب من الجواهر، وفيها خلال أخرى[3].

ولكن ذلك لا يعني أن كوكب الأرض ليس كروياً، كما أشير إليه في قوله تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾**[4]. أي جعلها كالأدحية، وهو عش

---

(1) الآيات 17 ـ 20 من سورة الغاشية.
(2) بحار الأنوار ج99 ص55 ومفاتيح الجنان ص725.
(3) راجع: التوحيد للمفضل ص97 وبحار الأنوار ج3 ص127 وج57 ص148 ومستدرك سفينة البحار ج2 ص26.
(4) الآية 30 من سورة النازعات.

النعم، وهو دائري كروي.

ودحوت الشيء: دحرجته، ولا يكون ذلك إلا لما هو كروي، وقد روي في الحديث: دحا إليَّ النبي سفرجلة، وقال: دونكها[1].

فكوكب الأرض بما فيه من سهول وجبال، وبحار، وغير ذلك، كروي الشكل.. لكن الله سبحانه وتعالى قد سطح الأرض لتسهيل الحياة عليها، وجعل لها الجبال أوتاداً، ولكن كروية الكوكب لا تكون محسوسة لمن يعيش على ظهره، بسبب الاتساع الهائل، والضخامة العظيمة التي تمنع من الشعور بالإنحدار والاستدارة.

إهتزاز الغرور البشري:

وبعدما عرف الإنسان أنه عاجز عن معرفة أسرار السماوات وخفاياها وما لها من مديات وامتدادات، فإن غروره يهتز، وعنجيهته تتضاءل، فإذا عاد إلى نفسه، ونظر في الأرض التي ولد وعاش فيها، فإنه يعود إليها مهيض

---

(1) غريب الحديث ج2 ص725 وكنز العمّال (ط مؤسسة الرسالة) ج10 ص41 وبحار الأنوار ج63 ص166 ـ 167 وسنن ابن ماجة ج2 ص1118 والمستدرك للحاكم ج3 ص370 وج4 ص411 والمعجم الكبير ج1 ص117 والكامل لابن عدي ج4 ص123 وتاريخ مدينة دمشق ج25 ص57 وميزان الإعتدال ج1 ص510 وج2 ص349 و 557 والكشف الحثيث ص92 ولسان الميزان ج2 ص234 وج3 ص217 و 412 وربيع الأبرار ج1 ص216 وإمتاع الأسماع ج8 ص64 ـ 65 وسبل الهدى والرشاد ج7 ص206

الجناح، متحيراً، ولاسيما بعد أن عرف أن هناك سماوات عديدة، وأن ما يراه من النجوم هو في السماء الدنيا فقط، كما دلت عليه الآيات، فإذا نظر إلى الأرض التي يعيش عليها، ويستفيد من خيراتها، وأكثر ما يعيش الناس فيه وعليه هو الأرض المستوية، فيحفرون فيها لاستخراج ما فيها من مياه، ومعادن، وخيرات.. ويزرعونها، ويحرثون ويغرسون فيها الأشجار للحصول على الحبوب والثمار..

بل هو يرى: أن شجرة واحدة تعطيه أنواعاً من الثمار، مختلفة في طعومها وألوانها، وأشكالها، وأحجامها، ومكوناتها، وغير ذلك.

ثم هو يرى الإختلاف والتضاد فيما تخرجه لهم من ألوان، وطعوم، وأشكال، وحقائق وعناصر مختلفة، فيزداد حيرة وذهولاً، لما يراه من مفاجآت.

وسبب ذلك: أن هذا الالتصاق بالأرض، والتسلط عليها، والتعامل المستمر معها، وإلفها بحكم العادة، والحضور الدائم لديه، فإن ذلك يجعله ـ في الغالب ـ غافلاً عن أسرارها وخفاياها..

وغفلته هذه أشد من غفلته عن السماء، لأنه كلما نظر إلى السماء، شعر بالعجز وبالجهل..

ولكن الإنسان حين ينظر إلى الأرض التي يطؤها بقدميه، يشعر بالكبرياء، والغرور، والتفوق الذي يدَّعيه لنفسه.

ويشهد لذلك: أن الله تعالى أقسم في كتابه الكريم بأمور كلها مما يعيش الإنسان معه، ويعتاد عليه، مثل: الليل والنهار، والضحى، والشمس، والقمر، والنفس.

كما أنه تعالى دعا إلى التفكر في كيفية خلق الأرض، ورفع السماء، ووضع الجبال، وبسط الأرض، فقال عز وجل: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾[1]. فإن الإنسان العربي يعيش مع الإبل، وكانت هي محور حياته، وهي معه في حلِّه وترحاله، ومنها غذاؤه، وهي تحمل أثقاله إلى البلاد البعيدة.

كما أنه يعيش مع السماء، والأرض، والجبال، والشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، وما إلى ذلك.

وهذا الحضور الدائم للأشياء، واستيفاء بعض المنافع من هذا الحاضر منها، يضعف لديه الرغبة في البحث عما وراء ذلك.

والتعامل مع الأرض التي يلتصق بها الإنسان عادة لا يخرج عن هذا المسار.. ويصرفه عن التفكير في أسرارها وعجائبها.

والحال، أن الله تعالى يريد له: أن يتمثل العجز الذي أدركه بعقله، وأن يستحضره بوجدانه، ليعرف حدّه، فيقف عنده. فكان لا بد أيضاً من ذكر الجبال التي قد يكون أكثر الناس غائبين، أو بعيدين عنها، وليس في المحيط الذي يعيشون فيه ما يقتضي وجودها..

فامتناع الإنسان عن خوض التجربة كأنه يشير إلى أنه إنما امتنع باختياره، فهو امتناع عملي تكويني، مشوب بالاختيار بحسب الظاهر لأجل إثبات أنه عاقل مدرك للأمور، ويتعامل معها بواقعية.

---

(1) الآيات 17 ـ 20 من سورة الغاشية.

وهذا هو حال امتناع الجبال أيضاً عن حمل الأمانة، فإنه امتناع عملي تكويني مشوب بالاختيار، ومنطلق من الإدراك والتعقل.

2 ـ كما أن التعبير بكلمة أبين، يراد به أن الإباء قد حصل من كل فرد، فرد. أي من كل سماء، وكل أرض، وكل جبل، لأن إدراك العجز قد حصل للجميع..

ولو قال: فأبت، فقد يفهم منه: أن مجموع هذه الثلاثة قد توافقت على الرفض، والإباء..

ولعل بعضها لو خلي ونفسه، لادّعى: أنه قادر على حمل الأمانة.

ومما يدل على أن الجميع كان مدركاً لعجزه: قوله تعالى: ﴿**وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**﴾، لأن الإشفاق هو المحاذرة والخوف من أن لا يتمكن من الإتيان بالمطلوب على الوجه الصحيح والأتم، الذي يريده صاحب الأمانة.

أَنْ يَحْمِلْنَهَا:

كما أنه تعالى لم يقل: أبين حملها، بل قال: ﴿**أَنْ يَحْمِلْنَهَا**﴾.. لأنه تعالى لم يطلب منهم حمل الأمانة، بل عرض الأمانة عليهم.

وقوله عز وجل: ﴿**أَنْ يَحْمِلْنَهَا**﴾ يدل على أنه تعالى قد عرَّف كل واحد من السماوات والأرض والجبال بجهله وضعفه، وأشعره: بأن حمل الأمانة كما يريد صاحب الأمانة لا يناسب طبيعة خلقته، ووسائله، وإمكاناته، ودوره، والغاية من خلقته.

وَأَشْفَقْنَ مِنْـهَا:

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ يلاحظ: أنه تعالى تحدث عن الإشفاق من الأمانة، مع أن الإشفاق هو من حمل الأمانة، وعدم القدرة على الإتيان بها كما يريده الله تعالى، وليس الإشفاق من خصوصية ذات الأمانة من حيث هي كذلك.

ويجاب:

بأن هذه الأمانة لها خصوصية عظيمة، هي التي أوجبت أن يكون الإشفاق منها، وهي ذات بعدين:

أولهما: أنها أمانة إلهية، والله تعالى هو المطالب بها، والطالب لحفظها إلى أهلها.

الثاني: أن مضمون هذه الأمانة أيضاً في غاية الأهمية والخطورة، فإن المعرفة بحقيقة الأمانة: أنها الولاية والحاكمية، وأن الإخلال بها يلحق الضرر بالمخلوقات، والكائنات على أوسع نطاق، ويخلّ بحياة البشر، والشجر، والحجر، وحتى الجن، والملائكة، فإن التوجس من الإخلال بها، ومن مقاربتها بصورة غير سليمة يصبح أمراً متوقعاً، ويصير التوفر على حفظها وتوفير وسائل إيصالها إلى أهلها هو ما يفرضه العقل السليم، والوجدان القويم.

الفصل الثالث

وحملها الإنسان..

ما المراد بالإِنْسَان؟!:

وهنا سؤال يقول: هل المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ ما يشمل حتى الأنبياء وأوصياءهم، والأخيار من أتباعهم؟!

ونجيب:

أولاً: إن الآية تقول: إن الإنسان الذي حمل الأمانة شديد الظلم، كثير الجهل، ولا يوصف الأنبياء بأي من هذين الوصفين، فضلاً عن أن يوصفوا بالشديد والكثير منهما.

ثانياً: تقدم: أن الأحاديث صرحت: بأن الأنبياء والأئمة، والصالحين من أممهم قد حفظوا الأمانة، وإنما ضيعها الفساق والفجار، والجاهلون والظالمون الذين ادّعوا أنهم أهل لها، وأنهم يحملون صفات حَمَلَتِها الحقيقيين وميزاتهم، وقد قلنا: إن ذلك هو مضمون العديد من الروايات، إما تفصيلاً، أو على سبيل الإشارة، والإجمال في العبارة..

وقد بيَّن تعالى في الآية الثانية: أن المنافقين والمشركين الذين استحقوا العذاب الأليم هم المقصودون بالإنسان الظلوم والجهول..

والظاهر: أن إشفاق السماوات والأرض والجبال من الأمانة هو خشيتها من عدم الوفاء بما يريد الله سبحانه من هذه الثلاثة، بحسب طبيعة خلقتها

وتكوينها.

فإباؤها الحمل تكويني، ناشئ عن عدم التناسب بين الأمانة، وبين تكوين السماوات، والأرض، والجبال.

وحتى لو كان قد عبّر عنه بالقول.. فإنه يكون على حدِّ قولك لرجل ضعيف: احمل هذا الجبل، فإنه سيقول لك: لا أحمله، لأنني عاجز عن ذلك تكوينياً. ولعله يعلن عجزه عن ذلك بالقول أيضاً، كما هو عاجز فعلاً وواقعاً.

كما أن الإشفاق هنا، والخشية هما من عواقب التصدي لأمر لا تملك السماوات والأرض والجبال إمكانات حمله.

«كَانَ» لماذا؟!:

وقد قال تعالى: ﴿**وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾. وهنا سؤال يقول: ما هو الداعي لقوله: «كان»؟! ألم يكن يكفي أن يقول: حملها الإنسان الظلوم الجهول؟! أو: وهو ظلوم جهول؟!

أم أنه يريد أن يقول: إن ظلومية وجهولية الإنسان في الماضي هي التي دعته إلى الإقدام على هذا الحمل العدواني للأمانة؟! والماضي يؤثر في الحاضر، ويبقى أثره حتى بعد انقطاع الصلة بينهما؟!

ونجيب:

بأنه تعالى لا يريد هنا الحديث عن الماضي.. بل يريد أن يقول: إن الإنسان الذي يتحدث عنه كان جهولاً وظلوماً بحسب خلقه وطبعه في السابق وفي اللاحق، من خلال نفسه الأمارة بالسوء، وعدم تحريكه عقله وإرادته، لمواجهتها

وصدها، ومن خلال تضخم «الأنا» لديه، وغروره، واستكباره، وركونه إلى الدنيا، وزخرفها، وما إلى ذلك.

لماذا ظلوم وجهول؟!:

والسـؤال الآخر هنا هو: كيف نفهم صيغة المبالغـة في كلمتي: «ظلوم وجهول»؟! ألم يكن يكفي أن يقول: كان ظالماً وجاهلاً؟!

ونجيب:

بأن ما يحفِّزه لحمل هذه الأمانة جهله بأمور كثيرة، لو أنه راعاها، وأنصف نفسه في التعامل معها، لكانت واحدة منها تكفي لارتداعه عن ارتكاب حماقته هذه.

كما أنه بإقدامه على التصرف العدواني بالأمانة يكون قد حمل نفسه أثقالاً كبيرة وكثيرة، ومهلكة في مجالات مختلفة، لعلها تستوعب مختلف مجالات الحياة وشؤونها، ولم تكن لتطيق ذلك كله.. فضلاً عن أن تتحمل تبعاته وآثاره الخطيرة في الدنيا والآخرة.

وقد اتضح لنا ذلك حين أعلمنا أئمتنا الطاهرون «عليهم السلام»: أن المراد بالأمانة هي ولاية أمير المؤمنين «عليه السلام» التي بها تقبل أعمال العباد، والمفروضة على جميع المخلوقات، من جن وإنس، وملك، وغير ذلك، من لدن آدم وإلى يوم القيامة،

بل وعلى السماوات والأرض والجبال.. وعلى الحيوان والجماد، والنبات والشجر، والبر والبحر، وما فيهما، وبها صلاح الكون والحياة، والمعاش والمعاد.

والإخلال بهذه الأمانة سوف يلحق الضرر والفساد في كل شيء، ومن يفعل ذلك لا بد أن يتحمل مسؤولية هذا الفساد في جميع أدواره وأطواره، وحالاته.. وسوف يحاسب حساباً عسيراً، يلحق بنفسه أفدح الخسائر.

كما أن ما تحتاجه هذه الأمانة في حملها، وتحقيق أهدافها، من علم وعقل، وحكمة، وتقوى، وعبادة، وصبر، وشجاعة، وأمانة، وصدق، وإخلاص، وعصمة، وبصيرة، وأرقى وأسمى الصفات النبيلة والجميلة، والأخلاق الفاضلة والأصيلة، وغير ذلك، ما يمكِّن حاملها من أن يتسع في قدراته وفي ملكاته، وفي كل صفاته، ليصبح بحجم هذه المهمات، ويستوعبها من موقع الهيمنة، والقدرة على التصرف، ويكون جهده وعمله الذي استحق به رعاية الله تعالى، وتوفيقاته، هو الذي أوصله لهذا المقام الذي لا يصل إليه إلا هؤلاء الصفوة والأطهار.

أما من يكون صفر اليدين من ذلك كله، مليئاً بالشرور والآثام، متخماً بالجهل، متردياً في مهاوي الغرور والاستكبار، وغارقاً في حمأة الشهوات، وكان أنانياً، سادراً في غواياته، وضلالاته، وأهوائه، متصفاً بأقبح الصفات، فإن تصديه لهذا المقام الشريف والمنيف أوضح شاهد على كثرة وشدة ظلمه وجهله.

ولذا قال تعالى: ﴿**كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾.

لماذا اختار الظلم والجهل؟!:

وقد يسأل البعض عن سبب اختيار خصوص وصفي ظلوم وجهول في

الإنسان على سائر أوصافه القبيحة. كالغرور والاستكبار، وغير ذلك.

ويمكن أن يجاب:

بأن الصفات التي تدرك جميع العقول قبحها من جميع الوجوه، وترفضها الفطرة، وتظهر آثار سوئها في جميع الأحوال هي الظلم والجهل، فهاتان الصفتان يستحيل أن تكونا حسنتين في أي حال.. لكن سائر الصفات قد يمكن انتحال وجه حسن لها في حالات معينة، مهما كانت ضئيلة ونادرة أو غير مرضية..

فالعجلة مثلاً قد تكون واجبة ومرضية أحياناً، كالعجلة في إنقاذ الغريق، وإغاثة الملهوف مثلاً..

والتكبر أيضاً مرفوض شرعاً في نفسه، ولكنه ممدوح إذا كان تكبراً على المتكبر، فإن التكبر على المتكبر عبادة.

والكذب حرام، ولكن الكذب يصبح واجباً إذا توقفت نجاة النبي أو الوصي، بل مطلق المؤمن عليه.. وإذا كان يؤدي إلى الإصلاح بين المتخاصمين.

وأكل الميتة حرام، ولكنه يجوز إذا توقف حفظ النفس من الموت عليه وهكذا يُقال في كثير من الموارد.

وبذلك يتضح: أن ذكر الجهل والظلم في هذا المورد، يجعل سوء فعل المعتدين على مقام الإمامة من الأمور التي قياساتها معها.

الفصل الرابع

أهداف عرض الأمانة..

للغاية أم للعاقبة؟!:

وبعد أن ذكر الله تبارك وتعالى: أنه عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان الظلوم الجهول.

وظهر: أن الظلوم الجهول لا يمكن أن يكون نبياً أو وصياً، لأن هؤلاء خرجوا من هذه الدائرة، دائرة الظلم والجهل، بعلمهم، وجهدهم، واختيارهم، وصفاء نياتهم، وتربية أنفسهم، وسلامة فطرتهم، وتحكيم عقولهم.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى ذلك، قال: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾[1].

فهل هذه اللام التي في بداية هذه الآية في قوله: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ**﴾ هي لام الغاية، أي أن الهدف الإلهي من عرض الأمانة: هو أن يعذِّب هؤلاء، ويتوب ويثيب، ويغفر، ويرحم أولئك؟! أم أنها لام العاقبة؟!

فإن كانت لام الغاية، فهل يعقل أن يفعل الله ذلك، ليتوصل به إلى عذاب هذا ومثوبة ذاك..

أو أنه تعالى عرض الأمانة عليهم ليحفظوها ويؤدوها إلى أهلها، وهي

---

(1) الآية 73 من سورة الأحزاب.

سليمة من أي عدوان.. فأدركت الجبال عجزها عن ذلك بحسب طبيعة خلقتها، فأعلنت ذلك بإبائها وإشفاقها.. ولكن الإنسان الظلوم الجهول قد تعامل مع الأمانة بمنطق الاستئثار، والعدوان، لجهله بآثار ذلك على مختلف الموجودات، ولجهله أيضاً بما يحتاجه حاملها من ملكات وقدرات، وصفات..

ولأنه كثير الظلم لنفسه، فهو حمَّلها أثقالاً لم تكن تخطر على بال، كما أنه ظلوم لسائر المخلوقات التي سوف تتضرر نتيجة عدوانه على الأمانة.

وإن كانت اللام هنا هي لام العاقبة، فيكون المعنى: أن خيانة الإنسان الظلوم الجهول، المتمثلة باغتصاب المقام الإلهي من أهله الحقيقيين، وإقصائهم وإزالتهم عن مراتبهم.. قد نتج عنه انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: اثنان منها يعذبان، والقسم الثالث يثاب..

فأحد الفريقين اللذين يعذبان مشرك لا يعترف بالإسلام.

والثاني منافق يظهر الإيمان والإسلام، ويبطن الكفر، وكلاهما يستحق العذاب، لأن سمة الكفر منطبقة عليه، سواء أظهرها أو تستر بها.

والفريق الثالث، هم المؤمنون الحقيقيون الذين يستحقون الرفق والرحمة، والمغفرة، والتوبة منه تعالى.

فيعذِّب الله سبحانه أولئك، ويتوب، ويرحم، ويغفر لهؤلاء.

وإنما استحقوا العذاب والثواب نتيجة لسوء اختيار أولئك، وحسن اختيار هؤلاء، لا لأجل نفس عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال.

وقد يبدو للبعض: أن هذا الوجه هو الأقرب والأولى بالاعتماد..

غير أننا نقول:

هناك وجه آخر يحسن الوقوف عنده، ويمكن عرضه على النحو التالي:

إن لام العاقبة، هي التي تسمى لام الغاية.. والاختلاف بينهما ليس جوهرياً، ومن أمثلة لام العاقبة قوله تعالى: ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا**﴾[1]. وليست هذه لام الغاية، لأن غايتهم من التقاطهم له هو أن يكون ولداً، ومؤنساً، وحبيباً، لا عدواً وحزناً.

فيلاحظ: أن هذا البيان مبني على أن المقصود بالغاية هو الغاية والقصد من الالتقاط.

أما إذا كان المراد من الغاية هو النهاية التي انتهى إليها الأمر الذي بدأ بالالتقاط، ولو لم تكن هذه النهاية محط نظر وقصد الملتقط، فإن اللام تكون لام الغاية بهذا المعنى، وهي نفسها لام العاقبة.. ولكن لام الغاية على هذا التقدير تكون أعمّ من لام العاقبة، لشمولها للغاية المقصودة وغير المقصودة.

إذ لا يجب في الغاية والنهاية التي ينتهي إليها الأمر أن تكون محبوبة ومطلوبة، أو مقصودة.

ولكن جرت كلماتهم على أنها، إن طابقت المراد في البداية سميت لام الغاية، وإن خالفته سميت لام العاقبة، وهي أيضاً لام الغاية، فلام الغاية يكون ما قبلها علّة لحصول ما بعدها.

وأما لام التعليل، فيكون ما بعدها علة لما قبلها، كقولك: قل لفلان يراجع الطبيب، لكي يعالج نفسه، أو قل له: فليبق هنا، ليتعلم في مدرستنا،

---

(1) الآية 8 من سورة القصص.

أو قل له: سافر إلى العراق، ليزور مقام الحسين.

فأما لام العاقبة، فهي غاية لما قبلها، وليست علة له.

فظهر مما تقدم: أن اللام في قوله تعالى: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ**﴾ هي لام الغاية ولام العاقبة، فإنهما شيء واحد، والاختلاف إنما هو في أمر انتزاعي، وهو الموافقة للمراد، أو المخالفة له..

وليست اللام هنا للتعليل، إذ لا يصح القول: إن علَّة عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال هو التوصل بذلك إلى تعذيب، فريق من الناس، والتوبة والرحمة والمغفرة لفريق آخر.

فتعذيب الناس ليس علَّة لعرض الأمانة على السماوات.. نعم، يمكن أن يمتحن الله تعالى البشر بالأوامر والنواهي، فمن أطاع أثيب، ومن عصى عُذِّب، ويكون سبب المثوبة والعقوبة هو اختيار الإنسان نفسه وعمله بما اختاره.. وهذه لام العاقبة

بين الغائب والحاضر:

وقد قال تعالى في الآية الأولى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ**﴾. وهذه صيغة المتكلم الحاضر، ولكنه قال هنا: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ**﴾، وهذه صيغة الغائب الذي يحتاج إلى التصريح باسمه للدلالة عليه، ولأجل ذلك صرح بلفظ الجلالة. مع أنه يمكن أن يقول: لنعذب المنافقين والمشركين.

فلماذا عدل عن الحاضر إلى الغائب؟!

ويجاب:

بأنه تعالى حين ذكر عرض الأمانة كان المطلوب: إظهار العزة، والهيبة

والعظمة، ولكنه بعد أن تعدى الإنسان الظلوم الجهول الحدود، وأساء وألحق الضرر بجميع ما خلقه الله تعالى إلى يوم القيامة، صار المطلوب هو الحديث عن أمـر تكرهه النفوس، ويتناسب مـع حجم العدوان، وآثاره على جميع المخلوقات. وهو العذاب الذي اقتضاه العدل الإلهي، فالمناسب هو إظهار الغضب، والجزم والحزم، والإشعار بحتمية العقوبة والعذاب للمعتدين..

ومن موجبات الرهبة والخوف من المصير: التصريح بلفظ الجلالة، ليدل على أنه يتكلم من موقع الكبرياء والجبروت، والقدرة، والعظمة.

ونوضح ذلك كما يلي:

إن العدوان على الأمانة التي هي إمامة أمير المؤمنين «عليه السلام» قد جعل الناس فريقين:

أحدهما: المؤمنون، فإن الله تعالى يرحمهم، ويتوب عليهم، ويغفر لهم.

الثاني: الكافرون، وهم قسمان:

الأول: المشركون، ومن ضمنهم أهل الكتاب، الذين يقول الله تعالى عنهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**﴾[1]. وهذا يدخلهم في دائرة الشرك.. وكلمة «الأحبار» تقال لعلماء اليهود، وكلمة «الرهبان» تقال لمترهبي النصارى.

الثاني: المنافقون، وهم كل من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، سواء أكان من أهل الكتاب، أو كان لا يعتقد بدين، أو لا يعتقد بوجود إله، ولا نبي،

---

(1) الآية 31 من سورة التوبة.

أو أنه يعتقد بالإله، وينكر النبوة أو المعاد، أو أحدهما، أو غير ذلك من وجوه الكفر.

فإذا عرفنا أن المنافقين هم هؤلاء، فذلك يدلنا على أن الأمانة هي أمر يخص الإسلام، ويحتل منه موقعاً عظيم الأهمية فيه، وقد أشارت الروايات إلى أن المراد بالأمانة هو إمامة أمير المؤمنين، والأئمة الطاهرين من أبنائه «عليه وعليهم السلام»، استناداً إلى ما روي عن الأئمة «عليهم السلام» في ذلك. كما أشير إليه فيما سبق.

ويشهد لذلك: ما روي، من أن أعمال العباد لا تقبل إلا بولايتهم، ودلالتهم.

وأن أمير المؤمنين هو قسيم الجنة والنار، يقول لها: هذا لي، وهذا لك كما ورد في الروايات(1).

---

(1) عيون أخبار الرضا ج2 ص92 والمسترشد للطبري ص264 والأمالي للمفيد ص328 والأمالي للطوسي ص95 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص277 والروضة في فضائل أمير المؤمنين ص217 والفضائل لابن شاذان ص171 والطرائف ص82 واليقين لابن طاووس ص257 والعقد النضيد ص132و 141 و 148 والصراط المستقيم ج1 ص247 و 279 ومدينة المعاجز ج1 ص280 وبحار الأنوار ج7 ص187 و 337 وج8 ص166 وج33 ص162 وج36 ص3 و 75 و 90 وج38 ص68 وج39 ص194 و 198 وج49 ص173 وج65 ص112 والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص153 و 156 و 515 و 519 ومسند الإمام الرضا للعطاردي ج2 ص132 والتفسير المنسوب للإمام العسكري ص138 و 406 وتفسير القمي ج2 ص389 وتفسير فرات ص440 و 511

ويشهد له أيضاً: قوله تعالى في تبليغ إمامة علي «عليه السلام»: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(1).

وحين بلَّغهم إمامة علي «عليه السلام» يوم الغدير نزل قوله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(2).

وفي حديث الإمام الرضا «عليه السلام» في نيسابور روى للناس الحديث النبوي الذي يقول: «كلمة لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من

والبرهان (تفسير) ج1 ص280 وج4 ص494 وج5 ص510 و 566 ونور الثقلين (تفسير) ج5 ص441 وكنز الدقائق (تفسير) ج10 ص442 وج13 ص448 وج14 ص97 وشواهد التنزيل ج2 ص264 وقاموس الرجال ج10 ص282 وج11 ص607 والكامل لابن عدي ج6 ص340 وتاريخ مدينة دمشق ج42 ص298 وميزان الإعتدال ج4 ص208 ولسان الميزان ج6 ص113 و 121 وبشارة المصطفى ص48 و 197 وإعلام الورى ج1 ص367 والدر النظيم ص300 وكشف الغمة ج3 ص103 ونهج الإيمان ص553 ومعارج الوصول ص155 وتأويل الآيات الظاهرة ج2 ص467 و 760 وينابيع المودة ج1 ص251 و 254 وج2 ص27 و 404 وغاية المرام ج3 ص91 و 99 وج7 ص55 والصواعق المحرقة ص126 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج4 ص261 و 262 و 264 وج6 ص210 و 211 وج8 ص731 وج14 ص469 وج17 ص165 وج20 ص394 و 395 وج21 ص117.

(1) الآية 67 من سورة المائدة.

(2) الآية 3 من سورة المائدة.

عذابي».

ثم قال: «بشروطها، وأنا من شروطها»[1].

ولا ينحصر هذا الأمر. أعني شرطية إمامة الأئمة في التوحيد وغيره من حقائق الدين بالإمام الرضا «عليه السلام»، بل الإقرار بجميع الأئمة «عليهم السلام» من شروط التوحيد.

هذا والآيات المتقدمة النازلة في مناسبة الغدير قد أوضحت: أن ولاية علي شرط لكل أحكام الدين، وحقائقه، واعتقاداته، وأن التوحيد مشروط بهذه الولاية وكذلك النبوة والمعاد، وسائر الاعتقادات والأحكام.

كما أن الآيات النازلة في مناسبة الغدير تقول: ﴿**وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾، ووصفت منكر ذلك بكونه من الكافرين، فقالت: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي**

---

(1) نقله في مجلة مدينة العلم، (السنة الأولى) ص415 عن صاحب تاريخ نيسابور، وعن المناوي في شرح الجامع الصغير، وهو أيضاً في الصواعق المحرقة ص 122 وحلية الأولياء 3 ص192 وعيون أخبار الرضا ج2 ص135و (ط مؤسسة الأعلمي) ج1 ص145 وأمالي الصدوق ص208، وينابيع المودة ص 364 و 385 وقد ذكر قوله «عليه السلام»: وأنا من شروطها، في الموضع الثاني فقط. وبحار الأنوار ج49 ص123 و 126 و 127 ج3 ص7 عن ثواب الأعمال، ومعاني الأخبار، وعيون أخبار الرضا «عليه السلام»، والتوحيد، والفصول المهمة لابن الصباغ ص240 ونور الأبصار ص141 ونقلها في مسند الإمام الرضا ج1 ص43 و 44 عن التوحيد، ومعاني الأخبار، وكشف الغمة ج3 ص98. وهي موجودة في مراجع كثيرة أخرى. لكن يلاحظ: أن بعض هؤلاء قد حذف قوله «عليه السلام»: «بشروطها، وأنا من شروطها»، ولا يخفى السبب في ذلك.

الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، كما أن الآية الأخرى صرحت: بأن إكمال الدين قد تم بإبلاغ ولايته «عليه السلام».

وفي الروايات: أن هذا هو الحال بالنسبة للصلاة والصوم وسائر الأحكام، والاعتقادات، فإنها كلها لا تقبل بدون هذه الولاية والإمامة.

وما ذلك إلا لأن الله سبحانه خلق هذا الكون لأهداف معينة، ورسم له خطة، يريد له أن يسير عليها، ولم يكل الأمر إلى المخلوقات من جن وإنس، وغير ذلك، ولم يسمح لهم بأن يحكِّموا أهواءهم فيه..

والخطة الإلهية لا تنحصر بالناس في تعاملهم مع الأمور، بحيث يكون على شكل مواد قانونية يراد منهم تطبيقها، بل هي خطة شاملة تهدف إلى إيصال الكون كله إلى كماله، بالاعتماد على الهدايات الإلهية، والرعاية الربانية.

وجعل ذلك أمانة في يد ثلة اصطفاهم الله لنفسه، وأعدهم بتوفيقاته، وزودهم بالعقل الكامل، والعلم الشامل، والبصيرة النافذة، ومنحهم قدرات استحقوها بجهدهم وعملهم، تمكنهم من رعاية هذا الكون من أقصاه إلى أقصاه، وتدبيره من موقع المعرفة، بما يجعله منسجماً مع السنن الإلهية، والمناهج الربانية، وفق سعة وجودهم، وقدراتهم «عليهم السلام»، التي استدرجت هذا الموجود للارتباط بهم، والخضوع لهم، والحظوة برعايتهم وهيمنتهم.

ومما يشهد لسعتهم الوجودية التي مكّنتهم من بسط هيمنتهم: أنهم كانوا هم الذين حلّوا مشاكل آدم، ونوح، وإبراهيم، ويونس، وعيسى، وسائر الأنبياء والمرسلين، ومدوا يد العون لهم، ومعهم غيرهم عبر الأجيال، من لدن آدم «عليه السلام»، وسوف يستمرون في ذلك إلى يوم القيامة.

وعلينا أن ندرك: أن هؤلاء وإن كانوا يقومون بهذا الأمر العظيم، ولكن ذلك لا يعني: أن ذلك يخلّ بالحاكمية الالهية، بل الحاكمية هي له وحده. وهذا هو رأيهم، وقرارهم، ومنهجهم.

وهو تعالى الذي أراد أن يكون هؤلاء وسائط ووسائل لتحقيق تلك الأهداف، كما أن هؤلاء دون سواهم هم الذين يعيدون الأمانة إليه تبارك وتعالى، ولا يدَّعونها لأنفسهم، فالحكم عندهم لله وحده، وهو الذي فرض لهم هذه المنزلة، ليكونوا هم القيمين على إجراء أحكامه تعالى.

أضاف بعض الإخوة الأكارم قوله: كما تعلقت إرادته تعالى بأن يكون هناك مَلَكٌ للمطر، وللرزق، ولقبض الأرواح، وإجراء الرياح والسحاب، من دون أن يضرّ ذلك بحاكميته تعالى..

وقد نسب تعالى توفي الأنفس، وإزجاء السحاب إلى نفسه عز وجل، كما نسبها إلى المَلَك.

لماذا بدأ بالمنافقين؟!:

ويبقى هنا سؤال يقول: لماذا بدأ بالحديث عن تعذيب المنافقين، قبل المشركين، في حين أنه تعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[1].

ويقول عز وجل: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[2].

(1) الآية 48 من سورة النساء.

(2) الآية 13 من سورة لقمان.

ويجاب:

بأن ما يريده الله سبحانه: هو أن ينطلق هذا العالم بجميع مكوناته وما فيه وفق ما رسمه له، وأن تخضع الموجودات كلها للحاكمية الإلهية، خضوعاً إرادياً واختيارياً، كلٌّ وفق ما منحه الله إياه في تكوينه، وما أفاضه الله عليه من ألطاف وعنايات، وتفضلات، اقتضاها عمله، ومسيره في الحياة.

وقد وضع الله تعالى سنناً وأحكاماً، وأرسل هداة، ومرشدين، ومدبّرين، وقوّاماً ومشرفين على مسيرة الحياة، وهم الأنبياء، وأوصياؤهم، والمخلصون من أممهم.

فليس لأحد الحق في مزاحمة هؤلاء في المهمات التي أوكلت إليهم في الهداية والرعاية والإشراف، والتربية، لأنه تعالى هو الحكيم العليم، الرؤوف الرحيم، الخالق، والرازق، عالم الغيب والشهادة، لا يختار إلا أرقى نموذج بشري قادر بعلمه وإخلاصه، واستقامته، وجهده، وتضحياته، وصبره، وحكمته، وتدبيره على تحقيق الأهداف الإلهية الكبرى.

ولكن شرط أن لا يفسد عملها، ولا يشل حركتها الطامعون، والطامحون، والأشرار، والجهلة والظالمون، الذين إذا عجزوا عن مواجهة أهل الحق بالقوة، فإنهم يتخذون سبيل النفاق والخداع للناس منهجاً وطريقة عمل، فإذا رأوا أن من يجب أن يقود الأمة، ويمسك بقرارها وخيارها يجب أن يكون مسلماً، مؤمناً، عالماً، تقياً، عاقلاً، ورعاً، وشجاعاً، وغير ذلك.. فإنهم يتظاهرون بالإسلام والإيمان، والورع، والتقوى، ويدَّعون لأنفسهم: العلم، والشجاعة، والصبر، والحلم، وهم من ذلك براء..

ويقدِّمون أنفسهم على أنهم بدائل صالحة، بل هم أصلح حتى من الأنبياء والأوصياء، ويحاولون محاصرتهم بالإعلام المسموم، والكاذب، وإقصاءهم، عن مراتبهم، وقد تصل الوقاحة بهم إلى حد قتلهم في السر، إن لم يمكنهم قتلهم بالعلن.. فإن لم يمكنهم هذا وذاك عملوا على قتله معنوياً، بافتراءاتهم عليهم، وشائعاتهم، وشبهاتهم، وتشكيكاتهم.

وهؤلاء هم الأخطر على الدين وأهله، وعلى الحق، وهم الأشر والأضر على الأخلاق والقيم، وعلى كل جهود الأنبياء والأوصياء، والعلماء، والشهداء عبر التاريخ.

ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ**﴾. لأن المنافق يصعب كشفه، ولأنه يأتي من خلال خطة رسمها، وسياسة اعتمدها، وخبرة تمرس عليها، ويعمل على تكريسها، بسوء نية، وخبث طوية.

فليس لهذا النوع من الناس دواء سوى أن يعاجَلوا بالعذاب، جزاء على ما اقترفوه عن سابق عمد وإصرار، ولا حاجة إلى مطالبتهم، ومحاسبتهم، ولومهم، لأن أمرهم معروف، وجرمهم مكشوف، وقبحهم موصوف.

لِيُعَذِّبَ اللهُ:

وقد قال تعالى: ﴿**لِيُعَذِّبَ**﴾، ولم يقل: لنعذب.. ولاسيما بعد قوله عز وجل: ﴿**عَرَضْنَا**﴾، فعدل عن صيغة الحاضر المتكلم هناك إلى الغائب هنا.. وفي سورة الحمد عدل من الغائب إلى الحاضر، فقال عز وجل: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

كما أنه عدل عن صيغة الجمع ـ كما في ﴿**عَرَضْنَا**﴾ ـ إلى صيغة المفرد، فقال:

﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ﴾.. فلماذا كان ذلك؟!

ويجاب:

أولاً: إن الإنتقال من الغائب إلى الحاضر والعكس، يستفز السامع، ويحفزه، ليعرف سبب هذا التحول في الخطاب، ويدعوه ذلك إلى المزيد من التأمل والتدقيق، والتنبه للطائف والإيحاءات.

ثانياً: إن التصريح بلفظ الجلالة، ربما كان من أسبابه: أن العذاب والعقاب للمجرمين والظالمين، والعفو عن المذنبين، والعود بالرحمة والتوبة على التائبين، والمغفرة للمسيئين، إنما يناسب مقام الألوهية، من أنه الإله القادر، والقاهر، والقوي، والعزيز، والجبار، وبما له من هيمنة وعظمة وجلال.

والألوهية هي التي تعاقب المجرمين، وتكبح جماحهم، وربما استحقوا عذاب الاستئصال.

أما الربوبية، فتقتضي: الرأفة، واللطف، والعطاء، والكرم، والرفق، والرزق، والشفاء، والهداية، والرعاية، والحلم، وما إلى ذلك.. لأن مقام الربوبية يسعى إلى ترشيد الإنسان، وتمكينه من التكامل والرقي، والأخذ بيده إلى الخيرات، والنعم، والسعادات، ما دام هذا الإنسان مستعداً لذلك.

ولأن المقام هنا هو مقام الألوهية، فإنه تعالى لم يقل: ويثيب المؤمنين، بل تحدث عن التوبة والمغفرة، والرحمة لهم، لأن هذا هو ما يقتضيه مقام الألوهية.

أما الحديث عن المثوبة، فيناسب مقام الربوبية.

ولو أنه تعالى قال: لأعذب، أو لنعذب، ولم يأت بلفظ الجلالة، ولم يعدل عن الحاضر إلى الحديث عن غائب.. فإن صفة الربوبية يبقى لها دورها، ولو

على سبيل الترديد بينها وبين الألوهية.. فإن مستوى التهويل على المجرم غير المستحق يتضاءل، وتفتح له كوة تطل به على الأمل بالرحمة، والرفق، والرأفة، والعطاء، وما إلى ذلك.. بالرغم من أنه ليس فقط لا يستحق شيئاً من ذلك، بل هو يستحق أشد العقوبات، وأقسى أنواع العذاب.

ولا يراد هنا هذا التخفيف، لأنه يخفِّف من مستوى الردع بالوعيد بالعذاب.

والمطلوب هنا: التشديد فيه.. لأن العدوان قد حصل على أمـر يمسّ جميع المخلوقات، وقد لحق الضرر بها، وبما سيكون منها إلى يوم القيامة، وهذا التخفيف تضييع لحقها.

النص على النساء لماذا؟!

ثم إن هذه الآية المباركة ذكرت في الموارد الثلاثة صيغتين: إحداهما للرجال، والأخرى للنساء، فقالت: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾.

فلماذا اختار هذا التفصيل، مع العلم: أن الآيات التي جاءت على هذا النسق قليلة جداً، قد لا تصل إلى عشر آيات، بينما تجد استعمال صيغة جمع المذكر السالم تعدّ في القرآن بالعشرات، إن لم يكن بالمئات، مثل: المتقين، المؤمنين، الكافرين، المسلمين، المنذرين، المدبرين، وغير ذلك كثير جداً.

ولأجل هذه الملاحظة انبرى بعض الناس إلى الطعن بالإسلام: بأنه دين ذكوري، لم يهتم بالمرأة، بل ازدراها، وصرف النظر عنها..

ونقول:

إن هذا القائل ـ فيما يبدو ـ لم يعرف الكثير عن خصائص ومزايا اللغة

العربية، فصار يطلق الكلام على عواهنه، بلا تدبير ولا تأمل.

ونحن نوضح له: أن ما ذكره لا أساس له من الصحة، وذلك لما يلي:

إن كلمة: «المتقين» وكلمة «كامل» مثلاً هي صفة منسوبة إلى ذات وموصوف، فكأنه قال: لدينا ذات أو ناس، أو شخص، أو رجل، أو إنسان له صفة التقوى، أو صفة الكمال، فإن كان الموصوف بالتقوى هو الإنسان أو الشخص، أو الذات مثلاً.. فالإنسان يصدق على الرجل وعلى المرأة على حد سواء.

وإن قدّرت كلمة رجل، واعتبرتها هي الموصوف بالتقوى مثلاً، اختص الوصف بالرجال..

وإذا كان القرآن الكريم إنما يقرر في آياته حقائقه، وشرائعه، وأحكامه، وعقائده، وتوجيهاته للناس، كل الناس، بما فيهم الذكر والأنثى، فقد اعتمد الصيغة القابلة للانطباق على الرجل والأنثى معاً على نحو واحد، من دون أية خصوصية لأي من الجنسين على الآخر فيما يبينه ويشرعه من أحكام، ويقرره من عقائد، وينشئه من توجيهات وأوامر، ولم يشر إلى التخصيص، والنص على طبيعة الجنس المقصود بالكلام إلا في موارد معينة اقتضى الأمر فيها ذلك.

وهذا المورد هو من هذه الموارد الخاصة التي اقتضى الأمر فيها التنصيص على الجنسين معاً، ربما لكي لا يتوهم: أن المرأة لا شأن لها بهذا الأمر، أو أنها لا تستطيع منافسة الرجل فيه، لأنه هو الأقوى..

لأن المرأة لديها طموحات وأهواء، ولديها قدرات كبيرة على التحدي

والتصدي، وكم من النساء حكمن الممالك بالحديد والنار، وخضن الحروب، وأسقطن العروش، وبعضهن ـ كبلقيس ملكة سبأ ـ كان لها عرش عظيم، كما قال تعالى في القرآن الكريم..

فالمرأة كالرجل في الادِّعاء، وفي المكر والحيلة، والقسوة، وبعضهن ادَّعت النبوة مثل سجاح، ولا ندري إن كان فيهن من ادَّعت الربوبية أيضاً، كما صنع فرعون، وبعضهن حاربت أوصياء الأنبياء، وقادت الجيوش الجرارة لهذا الغرض، كما هو الحال بالنسبة لصفيراء زوجة موسى «عليه السلام» التي حاربت وصيه يوشع، وكما هو الحال بالنسبة لعائشة التي حاربت علياً «عليه السلام»، وصي رسول الله «صلى الله عليه وآله». وكان لبلقيس ملكة سبأ، مع سليمان «عليه السلام» شأن عظيم، ذكره القرآن في سورة النمل..

فلماذا نستغرب إذا صرح القرآن: بأن المرأة مثل الرجل في طموحاتها، وادِّعاءاتها، وفي قدراتها ومبادراتها.. وقد تحارب الأنبياء والأوصياء، وتعمل على إفشال أطروحتهم، وإضاعة جهدهم، ومحاصرتهم، وقد تدَّعي أنها أحق منهم بالإمامة والزعامة، والقيادة، ثم تعمل على التسلط على الناس بالعدوان والقهر والجبروت؟!

فظهر: أن الأمر ليس خاصاً بالذكور، بل للنساء فيه مآرب.. وقد ظهر أنهن قد ارتكبن هذا الجرم العظيم بادِّعائهن الحكم لأنفسهن دون الله وأنبيائه ورسله في مفاصل كثيرة في التاريخ، ولا يزال ذلك يحصل إلى أيامنا هذه.

وبعبارة موجزة:

كان يمكن أن يقول: ليعذِّب الله المنافقين والمشركين، من دون حاجة إلى

ذكر المنافقات والمشركات، باعتبار: أن المراد بالمشرك، والمنافق، والمؤمن هو ذات متصفة بالشرك والنفاق، أو الإيمان، سواء أكانت ذكراً أو أنثى..

وليس المراد بالمنافق: الرجل المنافق، بل الشخص المنافق، أو الذات التي ثبتت لها هذه الصفة أو تلك، مهما كان نوعه أو جنسه.. فإن الإسلام ليس ديناً ذكورياً (أي خاصاً بالذكور) ـ كما يزعمون ـ بدعوى: أنه لا يذكر الأنثى إلا في حالات نادرة..

مع أن الحقيقة هي: أن المتكلم هو الذي يقدِّر ويحدِّد نوع الشخص الذي يريد إثبات الصفة له.. فقد يقدِّر كلمة «الرجل» أو «الرجال»، وقد يقدِّر كلمة «المرأة» أو «النساء»، وقد يقدِّر كلمة «الذات» أو «الشخص»، أو غير ذلك.

فإن كان يريد أن يدفع توهم الاختصاص بالرجل أو بالمرأة صرَّح بكليهما، كما هو الحال في هذا المورد.

لماذا قدَّم المنافقين على المشركين؟!:

وعن السبب في أنه تعالى قدَّم الحديث عن المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات، نقول:

لعل شدة خطورة المنافقين، وعظيم مكرهم، وخبث طويتهم، لاسيما وأن المنافق يدبِّر في الخفاء، ويبقي نفسه مجهولاً، وربما تمكن من الوصول إلى مواقع حساسة، وزين للناس باطله، وقدمه لهم على أنه الحق، وقد يتمكن من إثارة الفتن، وتخريب البنية الاجتماعية، والعبث بأخلاق الناس، وخلخلة الثوابت، حتى العقلية والوجدانية، والفطرية منها، وزعزعة القيم.

والأصعب والأضر: أنك لا تعرف المنافق لكي تراقب سلوكه، وتفشل جهده، وتبطل كيده، ولو أردت أن تفعل ذلك، لواجهتك عقبات كبيرة وكثيرة.

وإذا كان حاذقاً في المكر، والخداع، فإنه قد يجعل من نفسه إماماً، أو يدَّعي النبوة، أو ما فوق النبوة للناس.

أما المشرك، المعلن بشركة، فهو عدو مكشوف، يمكن رصده، والدلالة عليه، والإشارة إليه، والحذر منه، وسد المنافذ التي يمكن أن يتسلل منها، فدفع شره أيسر..

بل كان الكفرة من أهل الكتاب والمشركين، يتخذون سبيل النفاق طريقة عمل مع المسلمين، وأهل الإيمان، فيظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر.

الأمانة شأن اعتقادي:

وقد دلت آية عذاب المنافقين والمشركين على طبيعة الأمانة التي عرضت على السماوات.. وأنها شأن عقائدي، وليس شأناً أحكامياً، أو أخلاقياً، أو إجتماعياً، أو إعلامياً، أو ما إلى ذلك..

فهي ترتبط بالنفاق والشرك، والإيمان، وهذه أمور اعتقادية، لأنها من أفعال القلوب، التي تطفو على التصرفات، فالنفاق هو كفر يتمظهر بصورة الإيمان، وكذب في صورة صدق، وخداع في صورة واقع، وباطل في صورة حق، وعصيان، وإجرام، وتمر على الله عز وجل، وإثم في صورة ورع وتقى، وجهل في صورة علم، وما إلى ذلك.

كما أن عرض الأمانة وحمل الإنسان الظلوم الجهول لها كان له أثر في

انقسام الناس إلى منافق ومشرك، ومؤمن، وهي أمور اعتقادية.

صيغ جمع الأفراد:

كما أن هذه الآية بيَّنت لنا: أن المعني بالإمامة، التي هي أمر اعتقادي، إنما هم الناس بما هم أشخاص وأفراد، وليس الجماعات بما لها من عناوين عامة وفضفاضة، يستطيع كل فرد أن يتملص منها، ويجد له مخرجاً، ويبتكر لها استثناء.

وتعلق الأمر بالأفراد معناه: أن كل رجل وامرأة، وعالم وجاهل، وغني وفقير، وكبير وصغير، ومؤمن وكافر، ومنافق و.. و.. الخ.. ـ إن كل فرد ـ معني ومطالب بهذا الأمر أمام الله، لأنه يلامس حياتهم ووجودهم، ومصيرهم في الدنيا والآخرة.. وهو يعينهم في معاشهم، وأمنهم، وسلامتهم، وأخلاقهم، وعلاقاتهم، وكل شيء يخطر أو لا يخطر على بالهم.

وهذا الأمر الإعتقادي، إذا وقع بيد الجهلة والظالمين، فإنه يمنحم الحاكمية، والهيمنة على كل شيء، فإنها القوة، والمقام، والهيبة، والمال، وكل ما يخطر، وما لا يخطر لهم على بال، وهو الذي يخضع الناس، ويسخّرهم، ويستأثر بجهدهم فيما ينفعهم، ويعبث بأمنهم.

وهو الذي يسخِّر كل الإمكانات والخصوصيات، والطاقات الفردية في خدمة الإستبداد، القائم على مص دماء الأبرياء، وتضييع جهود الأنبياء، وتضحيات الشهداء.

التصريح بلفظ الجلالة في غير المشركين:

وقد لاحظنا: أنه تعالى يصرّح بلفظ الجلالة في كلامه عن عذاب المنافقين، ثم يصرّح به في توبته على المؤمنين، ثم يصرّح به في حديثه عن مغفرته ورحمته لهم.. ولكنه لا يصرح بلفظ الجلالة في حديثه عن عذاب المشركين والمشركات، بل اكتفى بعطفهما على المنافقين والمنافقات، فما هو السبب في ذلك؟!

ونجيب:

بأن الله تعالى ـ كما قدمنا ـ قد تحدث عن المنافقين والمنافقات قبل ذكر المشركين والمشركات، لأن المنافقين والمنافقات هم الأشر والأضر والأخطر، حتى من المشركين.. فإن الشرك وإن كان ظلماً عظيماً، وهو من الذنوب التي لا تقبل الغفران.. إلا أن منافرته للفطرة، وانكشاف أمره، وعدم القدرة على تبريره وتزيينه قد هوّن من أمره، وقلّل من خطورته.

وأما النفاق، فهو مكر وكيد، وتدبير، وتآمر، وتصميم، وجهد، وعمل دائب، وحرص على الأذى، وعلى الإطاحة بالحق وأهله..

ولدى المنافقين خبرة، واستحضار للجزئيات، وسعي للحصول على أدق التفاصيل للأطروحة الإلهية التي جاء بها الأنبياء لأنهم يريدون إيجاد وسائل ماكرة لزعزعتها، والإطاحة بثقة واطمئنان الناس بها، واعتمادهم عليها..

ويسعون لاستبدالها بأحكام الأهواء، وتسويلات الشياطين، فهم يضعون أنفسهم في مقام الألوهية، ويعملون على نقض أحكام الله سبحانه، ويزيلون رسله، وأنبياءه، وأوصياءه عن مراتبهم، ويقتلون من يتمكنون من قتله، ويسجنون من يتمكنون من سجنه، ويحاصرون من يتمكنون من محاصرته،

وشواهد ذلك كله، وسواه تجدها في حياة أئمتنا «عليهم السلام».

وإذا بلغ التعدي على مقام الولاية إلى حد أن يزيلوا الأنبياء عن مراتبهم، ويتولوا أمر التشريع، ولا يبقى لله تعالى أثر في حياتهم بعد قطع علاقتهم به عملياً، وادَّعوا أن الله لا يملك شيئاً، بل الملك كله لهم، وهم يتصرفون بكل شيء دونه تعالى.. فإن الكارثة تكون قد حلَّت، والآمال قد اضمحلت.

أما المشركون، فهم في غفلة عن ذلك كله، أو أن أكثرهم على الأقل كذلك، وقسم منهم لا يهتمون إلا بمصالحهم، ومواقعهم، ومنهم من هو منقاد لرؤسائه، أو لأصحاب الأموال.

وإذا استولى هؤلاء أو أولئك على سلطان الله، فإنهم، ولاسيما المنافقون منهم يمسكون بكل إمكانات البشر، ويطبعون حتى على عقولهم، وعواطفهم، وأهوائهم، وأموالهم، وحرياتهم، وكراماتهم، وأمنهم، وسلوكهم، وأديانهم، وكل مفاصل حياتهم.

وهذا هو الأخطر في حكومة هؤلاء، فإن المنافقين المطَّلعين على أدق التفاصيل، يعرفون الحق، ويميزونه عن الباطل، ويسعون لمحقه وسحقه، فهم أخطر من المشرك، مهما كان خبيثاً وغثيثاً.

الحديث عن التوبة لا عن النعيم:

وقد رأينا: أنه تعالى بعد أن ذكر أنه يعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، لأنهم تعدوا على الولاية، وأجرموا لم يقل: وينعم على المؤمنين والمؤمنات، بل قال: ﴿**وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾.. فلماذا اختار الحديث عن التوبة، ولم يقابل العذاب بالنعيم؟!

ويمكن أن يجاب:

بما تقدم، من أن عرض الأمانة على السماوات والأرض، إنما باعتبار أن هذه الأمانة ترتبط بالحياة والدين، والدنيا، والآخرة، والأمانة هي: الإمامة، والهداية، والرعاية، والتسديد، والتدبير، وكل شيء.

والمؤمنون المعتقدون بالحق لا يخافون على أنفسهم من جهة عقائدهم، ولا يخشون من التمرد على الله، لأنهم خاضعون، مستسلمون له، ولأن عقائدهم صحيحة وسليمة، ولا يدَّعون أن لهم حق التشريع، أو حق التسلط على الناس وقهرهم، ولا غير ذلك مما يدَّعيه المشركون والمنافقون الكافرون لأنفسهم، لأن أولئك لا يعترفون بولاية الله وحاكميته، ولا بأنبيائه ورسله.

وإنما يخافون على أنفسهم من جهة أعمالهم، ولا يخشون الصالحة منها، بل خشيتهم هي من سقطاتهم، ومن تقصيرهم، ومن سيئات أعمالهم، ومن خلطهم العمل الصالح بالسيئ.

فالمؤمن يحتاج إلى الأمن من هذه الجهة.. ومنشأ الأمن من هذه الجهة أمور ثلاثة، هي:

ـ الحصول على التوبة عليهم من الله.

ـ أن يعاملهم الله بالرحمة.

ـ المغفرة لما تقدم من ذنوبهم..

وتوضيح ذلك:

أن التوبة: هي أن يعود الله تعالى على عبده بالرحمات، وهذا معنى عام، لا يختص بحالات صدور الذنب من العبد، فإن العبد يحتاج إلى رحمات الله حين

يعجز، وحين يمرض، وحين يحتاج إلى المال، وإلى الأنيس، والجليس، والمعين، وحين يجهل، وحين يضعف، وحين يجزع، وحين يتنفس، وحين يعطش، وحين يحتاج للزوجة، وللولد، وحين يخاف، وحين يفقد مكانته ونفوذه.. ويحتاج إلى الله أيضاً حين يذنب، ويعصي، وتزل قدمه، ويقصر، ويخل بما يجب عليه، وحين يحتاج إلى الكمال، إلى آخر ما هنالك.

والمؤمن ـ مع كل هذا ـ يعرف: أن الله تعالى هو الغني، والقوي، والعزيز، والقادر، والقاهر، ومن بيده كل شيء، وهو الذي يرفع مشكلاته، ويأخذ بيده، ويوصله إلى غاياته.

ولذلك منح الله تعالى التوبة للمؤمنين والمؤمنات، لأنها هي بغيتهم، وأثمن شيء لديهم.

التصريح بلفظ الجلالة:

وقد قال تعالى: ﴿**وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾.. وكان يمكن أن يقول: «ويتوب على» من دون ذكر لفظ الجلالة، ويكون الكلام حينئذٍ أقصر وأيسر، ولا يوجب إخلالاً بالدلالة، لأن مرجع الضمير هو الله بلا شك.

ويجاب:

بأن التصريح بلفظ الجلالة في موقع الكرم والعطاء، والعود على المؤمن بالرحمة، والعفو، والمغفرة فيه:

أولاً: تعظيم وتكريم للمؤمن، ورفعة لشأنه، وإعزاز لمقامه..

ثانياً: فيه زيادة في حسرة المنافق والمشرك، الذي ضلّ وأضل، وارتكب الجرائم والعظائم.

ثالثاً: فيه تخويف للمنافق والمشرك، وتغليظ للأمر عليه، وترهيب له، وتعريف له: بأنه إنما يتمرد ويبارز الإله القادر العزيز، الجبار، فما عليه إلا أن يرتدع عن غيّه، ويستدرك ما فرط منه، أو أن يعيد النظر فيما عقد العزم عليه، أو أن يشارك في إعادة الناس عن ضلالاتهم التي أسهم في إشاعتها فيهم، لأن الإسهام في إبعاد الناس عن أئمتهم، إخلال في اعتقاداتهم، وتضييع لأعمالهم التي لن تكون مقبولة بدون الولاية لأهل الولاية الحقيقيين.

وقد ظهر: أنه لما كان المقام هنا يقتضي هذا التعظيم، والتجليل للمؤمن، فإن ذلك من شأنه أن يدفع الناس إلى الإيمان، كما أن التخويف للمجرم من شأنه ردع من هم على نهجه من الاستمرار والإصرار على التمرد على الله، ومخالفة أوامره وزواجره.

كَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا:

ثم قال تبارك وتعالى في آخر هذه الآية المباركة: ﴿**وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾، فقد يسأل سائل، أو يقول قائل: ألم يكن يكفي أن يقول: «وهو الغفور الرحيم».. فلا يصرح بلفظ الجلالة مرة أخرى، لأن ذكره قبل ذلك قد أغنى عن إعادته في هذا المورد؟!

كما لا يحتاج إلى فعل الماضي الناقص، وهو كلمة: «كان».

ويجاب:

أولاً: بالنسبة لكلمة «كان» نقول:

إنه لا مجال للاستغناء عنها هنا، لأنها تؤدي معنى أصيلاً، ومقصوداً بالبيان، وهو: أن صفتي الرحيمية، والغفوريه ثابتتان له تعالى منذ الأزل،

وليستا من الأمور العارضة التي قد تحضر وقد تغيب.. فكلمة «كان» تدل على الكينونة الحقيقية التي لا تتغير.

ثانياً: بالنسبة للتصريح بلفظ الجلالة هنا، وعدم الاكتفاء بضميره، حيث لم يقل: «كان غفوراً رحيماً» نقول:

إن ذكر لفظ الجلالة، كما يدل على التكريم والتعظيم، والإهتمام بشأن المؤمن، فهو أيضاً يوجب خوف المنافقين والمشركين، لأجل ما ارتكبوه، فإنه أيضاً يدل على أن الذي يكرِّم ويعظِّم، ويرحم ويغفر هنا، ليس هو وجود إلهين: إله خير، وإله شر.. وأن بإمكانه أن يلجأ إلى إله الخير ليخرجه من سلطة إله الشر.. بل هو الإله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

صيغ المبالغة:

ويلاحظ: أنه تعالى ذكر هذين الأمرين بصيغتي المبالغة، فقال: ﴿**غَفُورًا رَحِيمًا**﴾.. ولكنه حين تحدث عن العذاب، اقتصر على ذكر إنزاله بالمجرمين، والمستحقين له، من دون أي مبالغة.

وربما كان سبب ذلك: أنه لو جاء بصيغة المبالغة في العذاب لتوهم متوهم: أن المبالغة تشير إلى مقادير من العذاب لا يستحقها المنافق والمشرك، وهذا يشي: بأن ثمة ظلماً يمارس على هذا وذاك.

ولكنه بالنسبة للرحمات الكثيرة، والمغفرة المتواصلة، فإنما هي تفضلات منه تعالى، ولا يلام المتفضل على فضله، مهما عظم وتضاعف.

الرحيم والغفور، والتواب:

وقد يقول قائل: إن مقام الألوهية هو مقام عظمة، وعزة، وقدرة، وهيبة،

وكبرياء، وملك، وجبارية، فهو تعالى يعاقب، ويهدد، ويخسف الأرض، ويجعل عالي البلاد سافلها، ويثير الطوفان، ويرسل الجراد والقمل، والضفادع، ويبتلي، وما إلى ذلك.

وهو أيضاً: الرؤوف، والرحيم، والغفور، والحليم، والكريم، والتواب، والشفيق، والرازق، والشافي، والشكور، والهادي، وما إلى ذلك.. وهذه الصفات تناسب مقام الربوبية، الذي يريد أن ينمي ويربي، ويرفع النقائص، ويقوي الضعيف، ويشبع الجائع، ويروي الظمأن، ويغني الفقير، ويشفي المريض، ويدفع الأسواء، ويبلغ إلى المقامات، ويعطي المسألات، ويقضي الحاجات..

فإذا جاءته هذه التفضلات الربوبية، من موقع الألوهية والعظمة، والعزة، والقوة، والملك، والكبرياء.. فإنه سوف يشعر بمزيد من الطمأنينة والسكينة، واللذة، والكرامة، والشموخ والرسوخ في واحة الرضوان الإلهي.

والحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

كلمة الختام:

وآخر كلمة نقولها هنا هي:

أن من المعلوم: أن الناس يختلفون في سلائقهم، وأذواقهم، وفهمهم، وهم درجات في مستويات وعيهم، وتفكيرهم، وفي ميولهم، وقوة وضعف عقولهم، وما إلى ذلك..

ويمكن تلمس هذه الاختلافات في أشياء ومجالات كثيرة، فلو عرضت على جماعة منهم بحثاً أو مقالة، وطلبت منهم: أن يسجّلوا ملاحظاتهم،

واعتراضاتهم عليه، فسترى آثار هذا التفاوت فيما يسجلونه من مؤاخذات.

ولكن هذا التفاوت لا يعني التباين، لأن ثمة قواسم مشتركة، وثوابت عقلية وإيمانية، وحياتية.. وغير ذلك لا يمكن تجاوزها، بل يتشارك الجميع فيها، وتكون موارد الاختلاف من مظاهر التنوع الذي غالباً ما يكون سببه اختلاف الإهتمامات، ومستويات الثقافة، ونوع المعارف التي هيمنت على فكر وعقل الشخص الذي تعامل معه.

ولأجل ذلك أقول:

لو عرضنا أي بحث على أية مجموعة أو مجموعات من الناس، ثم وجدنا: أن الملاحظات التي سجلت عليه كثيرة وكبيرة، ومتنوعة، فإننا سنجد أيضاً: أنه يمكن الاستفاد من جلّها، إن لم نقل من كلها.

وستزيد البحث نقاءً، وبهاءً، ورونقاً، وجمالاً.. وستسهم في تشييده وتسديده.. كما أنها قد تكون سبباً في رفضه، وتفنيده، أو تفنيد بعض ما ورد فيه.. وستكون قيمة التفنيد وقوته موازية لقيمة وقوة التسديد، في منح البحث صدقية، وعلمية، وموضوعية، أو في سلبها عنه..

من أجل ذلك ـ كنا ولا زلنا ـ نناشد القراء الكرام: أن يتحفونا ببعض ما عنَّ على بالهم عند قراءتهم كتبنا وبحوثنا، وأننا سنكون لهم من الشاكرين.. ولكن لم يبلغنا منهم إلا اليسير الذي لا يحسب شيئاً في موارد ما كنا نتوقعه.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين..

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

قم المشرفة ـ إيران

حرر بتاريخ: السبت 29 شوال 1439هـ ق.

14 تموز 2018 م. ش.

الفهرس

كتب مطبوعة للمؤلف

1ـ الآداب الطبية في الإسلام
2ـ ابن عباس وأموال البصرة
3ـ ابن عربي سنيّ متعصب
4ـ الأبواب في عهد الرسول ’: نصوص وآثار..
5ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية
6ـ أحيـوا أمـرنا
7ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم
8ـ أسئلة وردتنا
9ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..
10ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل
11ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)
12ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»
13ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي
14ـ الإمام علي والنبي يوشع ‘
15ـ الأمانة الإلهية.. لمن؟! ولماذا؟!
16ـ أهل البيت ^ في آية التطهير
17ـ أين الإنجيل؟!
18ـ بحث حول الشفاعة
19ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية
20ـ براءة يونس × في القرآن الكريم
21ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

22ـ بنات النبي ' أم ربائبه؟!

23ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان
24ـ تخطيط المدن في الإسلام
25ـ تفسير سورة ألم نشرح
26ـ تفسير سورة البيِّنة
27ـ تفسير سورة التكاثر
28ـ تفسير سورة التوحيد (الإخلاص)
29ـ تفسير سورة التين
30ـ تفسير سورة الضحى
31ـ تفسير سورة العاديات
32ـ تفسير سورة الفاتحة
33ـ تفسير سورة الفلق
34ـ تفسير سورة الكافرون
35ـ تفسير سورة الكوثر
36ـ تفسير سورة الماعون
37ـ تفسير سورة المسد
38ـ تفسير سورة الناس
39ـ تفسير سورة النصر
40ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)
41ـ توجيهات في العمل الإداري
42ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات
43ـ الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!
44ـ الحاخام المهزوم
45ـ حديث الإفـك
46ـ حقائق حول القرآن الكريم
47ـ حقوق الحيوان في الإسلام
48ـ حل الألغاز (تعليقة).
49ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×
50ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×

51ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×
52ـ خسائر الحرب وتعويضاتها

53ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)
54ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)
55ـ دراسة في علامات الظهور
56ـ دليل المناسبات في الشعر
57ـ ربائب الرسول ’ «شبهات وردود»
58ـ رد الشمس لعلي ×
59ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)
60ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)
61ـ زوجات الإمام الحسن ×: أكاذيب وحقائق
62ـ زينب ورقية في الشام!!
63ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي
64ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)
65ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية
66ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور
67ـ سيرة الحسن × في الحديث والتاريخ (المجتبى من سيرة المجتبى) (هذا الكتاب)
68ـ سيرة الحسين × في الحديث والتاريخ (أربعة وعشرون جزءاً)
69ـ شبهات يهودي
70ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة
71ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)
72ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ’ (خمسة وثلاثون جزءاً)
73ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد
74ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنَّة والجماعة)
75ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!
76ـ ظلامة أبي طالب ×
77ـ ظلامة أم كلثوم
78ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني
79ـ عاد الثانية.. كيف نعرفها؟!

80 ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت
81 ـ علي × والخوارج (جزءان)
82 ـ عهد الأشتر مضامين ودلالات (جزءان)

83 ـ الغدير والمعارضون
84 ـ القول الصائب في إثبات الربائب
85 ـ كربلاء فوق الشبهات
86 ـ لست بفوق أن أخطئ من كلام علي ×
87 ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!
88 ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)
89 ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (واحد وعشرون جزءاً)
90 ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»
91 ـ المسجد الأقصى أين؟!
92 ـ المعجزات: رقي وغايات، للبشر في الحياة
93 ـ مقالات ودراسات
94 ـ من شؤون الحرب في الإسلام
95 ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية
96 ـ المواسم والمراسم
97 ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام
98 ـ موقف الإمام علي × في الحديبية
99 ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)
100 ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^
101 ـ وقفات مع ناقد
102 ـ الولاية التشريعية
103 ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة
104 ـ الگوى سيره پژوهى وانديشه هاى اسلامى (فارسي)
105 ـ تحقيقي در باره تاريخ هجري (فارسي)